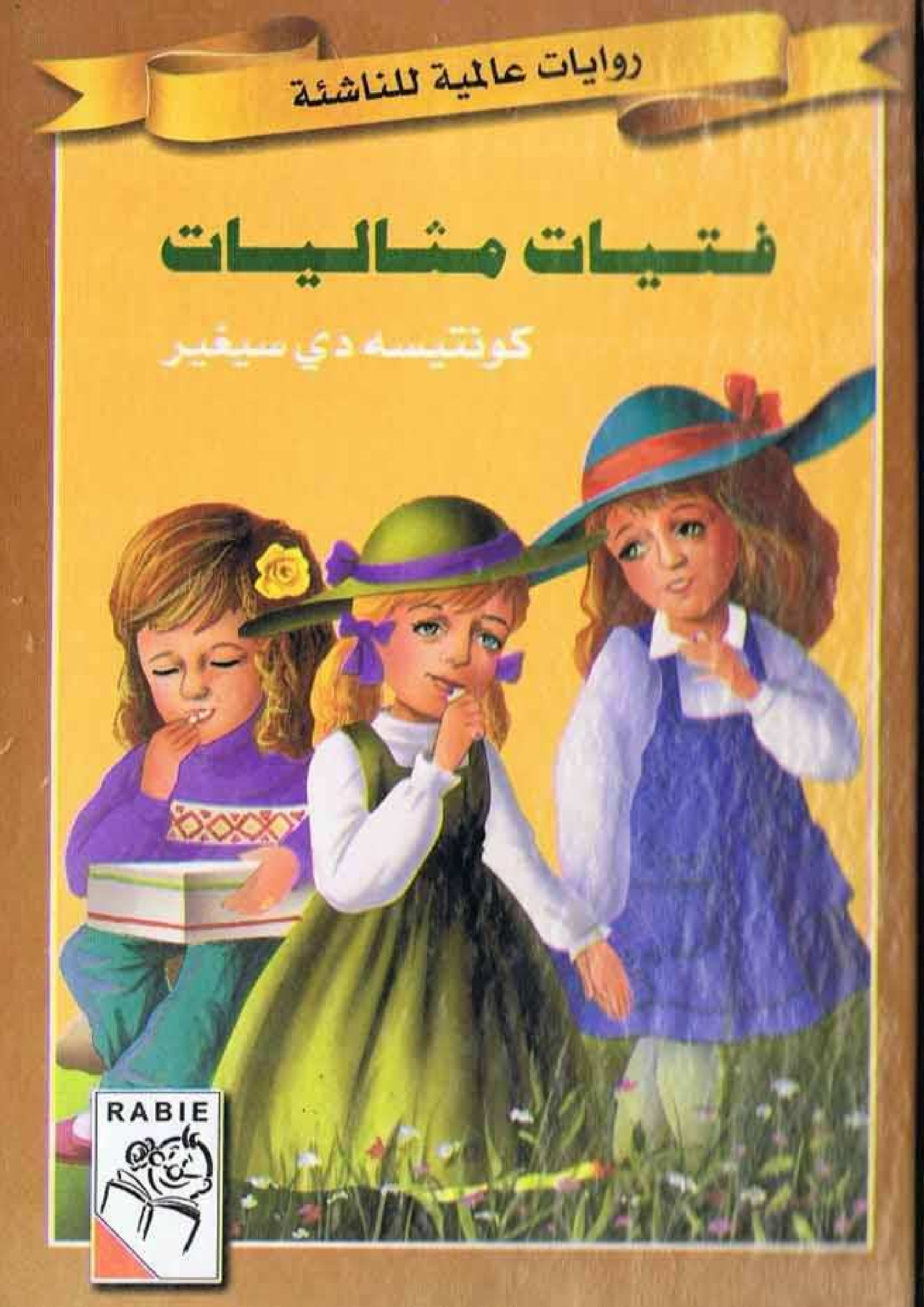


فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

RABIE

24

فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

مادلين وكاميل من عائلة فلورفيل ، تعيشان مع أمهما حياة سعيدة . وتتعرفان إثر حادثة على فتاة صغيرة اسـمها مرغريت . وتحاول الفتيات الثلاث رعاية صوفي اليتيمة التي تعاني من الظلم والوحـدة ، فكيف ينقذنها من حياتها القاسية؟ .

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

RABIE PUBLISHING HOUSE

فتيات مثاليات

(كونتيسه دي سيغير)

1874 –1799

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشـــراف : محمـــد كمـــال

إخراج فني : م. نشوان خريط



فتيات مثاليات

الفصل الأول

كاميل ومادلين

كان لدى السيدة فلورفيل فتاتان صغيرتان تتصفان باللطف ودماثة الأخلاق ، ولا تفارق إحداهما الأخرى ، وقد تعودنا أن نرى الإخوة والأخوات يتخاصمون ، ثم يُهرعون إلى أهلهم ليفصلوا بينهم ، فلا يعرفون المخطئ منهم والمصيب ، ولكن لم يحدث أن تخاصمت كاميل ومادلين أبداً ، فكل منهما تسعى إلى تلبية رغبات الأخرى .

لم تكن ميولهما متفقة ، أما كاميل التي تكبر مادلين وعمرها ثماني سنوات فهي حيوية كثيرة الحركة تفضل الألعاب الصاخبة على الألعاب الهادئة ، وتحب الجري

وإحداث الضوضاء ولا تجد متعتها إلا حين يجتمع عدد كبير من الأطفال فتشاركهم ألعابهم .

وأما مادلين فعلى العكس منها : تفضل الاعتناء بدميتها ورعاية أختها كاميل التي لولاها لما بدلت أغطية سريرها إلا كل ثلاثة أو أربعة أيام .

ولكن اختلاف ذوقيهما لم يمنع من توثق العلاقة بينهما ، فكانت مادلين لا تتردد في التوقف عن القراءة أو اللهو بدميتها إذا عبّرت كاميل عن رغبتها في النـــزهة أو الجري بين الحقول ، وكذلك تفعل كاميل فتضحي بالنـــزهة أو ملاحقة الفراشات إذا أحبت مادلين القراءة ، أو سواها من المتع الهادئة .

كانت هاتان الأختان سعيدتين ، وقد رضيت أمهما عنهما وأحبتهما ، كما أحبهما كل من عرفهما ، ويسعى الجميع إلى إدخال البهجة إلى قلبيهما وتلبية رغباتهما .

الفصل الثاني

النـزهة ، الحادثة

ذات يوم كانت مادلين تمشط دميتها وتساعد أختها في ترتيب أدواتها من أمشاط وفساتين وأحذية ، وتبديل مكان سرير الدمى وخزانتها وكراسيها وطاولاتها ، لأن الدمية كما تصورتا قد سكنت منـــزلاً جديداً .

مادلين : أؤكد لك يا كاميل أن الدمى كانت تسكن أفضل من هذا المنـــزل الجديد ، فهو فسيح يتسع لأثاثها .

كاميل : نعم ، هذا صحيح ، ولكنها ملت من المنـــزل القديم ، كما أن غرف المنـــزل الجديد صغيرة ويمكن تدفئتها بسهولة .

مادلين : لا تنسي أن سرير هذه الدمية قريب من الباب الذي تهب منه الريح ، وتلك الدمية تنام قرب النافذة فلا تحس بالدفء .

كاميل : حسناً .. حين تقضي الدمى بعض الوقت في المنـــزل الجديد وتكبر قليلاً ، سنبحث لها عن مسكن أوسع منه ، هل هناك شيء آخر يضايقك يا مادلين ؟ .

مادلين : لا .. أبداً .. خاصة إذا كان هذا يدخل السرور على نفسك .

بعد أن انتهت كاميل من نقل الدمى إلى بيتها الجديد ، مشطتها كاميل وألبستها ثيابها ، واقترحت على أختها أن تنادي المربية لترافقهما في نزهتهما ، ونادت إليزا .

قالت كاميل : إليزا . هل تأتين لتتنـــزهي معنا ؟

إليزا : بكل سرور .. إلى أين نمضي ؟

كاميل : سنمضي إلى الشارع العام لنتفرج على العربات ، أليس كذلك يا مادلين ؟

مادلين : طبعاً ، وإذا صادفنا بعض الفقراء ، نتصدق عليهم ببعض المال ، سآخذ معي خمسة قروش .

كاميل : آه .. معك حق ، سآخذ معي خمسة قروش .

انطلقت الفتاتان مسرورتَيْن تجريان أمام مربيتهما حتى وصلتا إلى السياج الذي يفصلهما عن الشارع ، وبانتظار مرور العربات كانتا تقطفان الزهور لتصنعا منه أكاليل للدمى .

هتفت مادلين :

– إني أسمع صوت عربة .

– إنها تجري مسرعة سنراها بعد قليل .

– اسمعي يا كاميل إنه صوت استغاثة .

– لا .. لا أسمع سوى صوت العربة تجري .

ولم تخطئ مادلين ، فما كادت كاميل تنهي كلامها حتى سمعت أصوات استغاثة ، وبعد لحظة ظهرت عربة تجرها ثلاثة خيول وهي تجري مسرعة وسائقها يحاول أن يوقفها ولا يستطيع .

كانت امرأة وابنتها ذات الأربعة أعوام تطلقان صرخات عالية ، وعلى بعد مائة خطوة من السياج سقط السائق من

مقعده ومشت العربة فوقه ، ولما أحست الخيول بأنه لا أحد يمنعها أو يوجهها ضاعفت من سرعتها وسقطت في حفرة تفصل الشارع عن الحقل المزروع ، وكم كان خوف مادلين وكاميل والمربية عظيماً وهن يرين العربة والخيول وسط الحفرة وقد توقفت أصوات الاستغاثة .

ومرت بضع لحظات قبل أن تسيطر المربية على خوفها وتفكر بإنقاذ المرأة وابنتها اللتين جرحتا أو ماتتا .

وهذا السائق ألا يجب إنقاذه أيضاً ؟

سارعت المربية إلى العربة التي هوت في الحفرة تتبعها مادلين وكاميل وهما ترتعذان .

كان أحد الخيول قد قُتل ، و الثاني انكسرت ساقه فلا يقدر على النهوض ، والثالث أذهلته السقطة فلم يتحرك من مكانه .

قالت المربية : سأحاول فتح الباب .. ولكن لا تقتربا ، فقد ينهض أحد الخيول ويصيبكما بأذى .

وفتحت الباب فإذا المرأة وابنتها بلا حراك والدم يسيل منهما .

– يا رب ، ربما ماتت الأم وابنتها !

كانت مادلين وكاميل تبكيان ، وأما إليزا فقد حاولت أن تنتزع الطفلة من حجر أمها التي تشبثت بها ، واستطاعت أن تحملها بعد جهد جهيد ، وكانت الطفلة شاحبة ملطخة بالدماء ، ولم تشأ أن تمددها على الأرض الرطبة ، فطلبت من الفتاتين أن تسيطرا على خوفهما وتحملاها إلى الجانب الآخر من السياج .

قالت كاميل : هاتيها .. سأحملها ، فهي مغطاة بالدماء ولكنها ليست ميتة ، وأنت يا مادلين ساعديني على حملها .

أجابت مادلين بصوت ضعيف خائف : لا أستطيع رؤية هذه الدماء والأم الميتة ! ليس عندي القوة لمساعدتكم ، ولا أستطيع سوى البكاء .

قالت كاميل : سأحملها وحدي .. سيمدني الله بالقوة على حملها .

ورفعت الطفلةَ الصغيرة بيديها وحاولت صعود الحفرة ، ولكنها كانت ثقيلة عليها فانزلقت قدمها وكادت تسقط الطفلة من يديها ، لولا أن مادلين تغلبت على خوفها واندفعت لمساعدة أختها في حمل الطفلة ونقلها إلى الجانب الآخر من الطريق ووضعها على العشب .

مددت كاميل الطفلة على حجرها ، وجلبت مادلين الماء من الحفرة ، ومسحت كاميل بمنديلها وجه الطفلة الذي غطته الدماء .

ولم تستطع أن تكتم صرخة فرح انطلقت من حنجرتها حينما رأت أن الطفلة مصابة بجروح :

– مادلين .. إليزا أسرعا ! الطفلة ليست ميتة ، لقد تنفست وهي تفتح عينيها الآن .

وبكت الطفلة قائلة :

– ماما .. ماما .. أريد أن أرى ماما .

قالت كاميل وهي تقبلها :

– ستأتي ماما ، ستأتي .. لا تبكي ، لا تبكي .. ابقي معي ومع أختي مادلين .

– لا .. أريد أن أرى ماما .. حملت الخيول الشريرة ماما !

– الخيول الشريرة سقطت في الحفرة .. انظري هاهي مربيتي إليزا تحمل أمك النائمة .

وبمساعدة رجلين كانا يعبران الشارع استطاعت المربية أن تجذب الأم .

لم تكن الأم تبدي حراكاً ، وكان في رأسها جرح عميق والدم يغطي وجهها وعنقها وذراعيها ، ولكن قلبها ما يزال ينبض .. لم تكن قد فارقت الحياة .

أرسلت المربية أحد الرجلين إلى السيدة فلورفيل لكي ترسل نجدة من الرجال لينقلوا الأم والطفلة إلى القصر ،

ورفعت السائق عن الطريق وفكت الخيول التي كانت تتخبط بدمائها .

انطلق الرجل ، وبعد ربع ساعة وصلت السيدة فلورفيل ومعها بعض الخدم وعربة نقلت المرأة ، ثم أسعفوا السائق وسحبوا العربة من الحفرة .

أثناء ذلك كانت الطفلة قد استردت وعيها ، فلم تكن مجروحة ، وأما إغماؤها فكان من الخوف وصدمة السقوط ، وخوفاً من أن ترى الدماء التي تسيل من أمها طلبت كاميل ومادلين من أمهما أن يلحقا بها مشياً على الأقدام ، وكانت الطفلة قد ألفت الفتاتين وظنت أن أمها نائمة فقبلت أن تجري معهما ، وفي الطريق كانت كاميل ومادلين تحادثانها .

مادلين :

– ما اسمك يا حبيبتي ؟

– مرغريت .. اسمي مرغريت .. وأنتما ما اسمكما ؟

كاميل :

– أنا اسمي كاميل ، وهذه أختي مادلين .

مرغريت :

– سأناديكما ماما مادلين وماما كاميل .

وصلن إلى القصر وهن يتحادثن ، وسارعت السيدة فلورفيل إلى استدعاء الطبيب ، وأرقدت السيدة رسبورغ الجريحة في فراشها ، وقد عرفت اسمها من البطاقة الملصقة على حقائبها ، وربطت جراحها لتوقف النـــزيف ، فبدأت تستعيد وعيها تدريجياً ، وبعد نصف ساعة طلبت رؤية طفلتها .

دخلت مرغريت بهدوء لأنه قيل لها إن أمها مريضة ، ورافقتها كاميل و مادلين .

قالت مرغريت :

– يا أمي المسكينة .. هل رأسك يؤلمك .

– نعم يا بنيتي .. يؤلمني كثيراً .

– أريد أن أبقى معك يا ماما .

– لا يا حبيبتي ، عانقيني ثم اذهبي مع هاتين الفتاتين اللطيفتين .

– نعم يا ماما .. إنهما لطيفتان فعلاً .. كاميل أهدتني دميتها الجميلة .. ومادلين أطعمتني مربى الكرز .

وابتسمت السيدة رسبورغ لفرح الطفلة ، ولكن السيدة فلورفيل لاحظت أنها ضعيفة و لا تقوى على الكلام ، فطلبت من مرغريت أن تلعب مع الفتاتين لكي تنام أمها ، وخرجت الفتاتان مع الطفلة .

الفصل الثالث

لقاء لا فراق بعده

على حين كانت الفتيات يلعبن ، جاء الطبيب لعيادة السيدة رسبورغ ولم يجد جرحها خطيراً ولا تحتاج لنقل الدم إلى جسمها ، فضمد جرحها بعد أن صب عليه المطهرات ، وأوصاها بالراحة ، ووعد أن يزورها غداً .

كانت مرغريت تزور أمها وهي في الفراش عدة مرات باليوم ، ولكنها لا تبقى مدة طويلة لأن ضجتها وأسئلتها تزعج الأم وإن كانت تدفعها إلى الابتسام ، وتشير السيدة فلورفيل إلى الأختين فتأخذان الطفلة معهما وتخرجان .

مازالت السيدة فلورفيل تعالج الأم حتى أبلّت من مرضها ، وعبّرت أثناء نقاهتها عن شكرها لها وأسفها لفراق هذه الصديقة التي بذلت ما في وسعها لرعايتها والعناية بها .

قالت لها السيدة فلورفيل :

– لماذا ترحلين يا صديقتي ؟ لماذا لا نعيش معاً ؟ فقد تعودت الفتاتان على مرغريت ولا أظن الصغيرة تصبر على فراقهما ، ويسعدني أن تبقي معنا .

السيدة رسبورغ :

– ألن أتطفّل عليك ؟

السيدة فلورفيل :

– مطلقاً .. فأنا أعيش منعزلة عن الناس بعد وفاة زوجي ، وقد حكيت لك عن مصرعه المؤسف في معركة مع الأعداء منذ ست سنوات ، وأنا أعيش في الريف ، وأنت قد فقدت زوجك أيضاً لأنك لا تعرفين أخباره بعد أن غرقت السفينة التي ركبها .

السيدة رسبورغ :

– وا أسفاه : لا ريب أنه غرق مع تلك السفينة المشؤومة ، ولم تؤد الأبحاث التي أجراها أخي البحار منذ

عامين إلى أي نتيجة ، ولم نجد لزوجي أثراً ولا لأحدٍ من رفاقه .

وبما أنك تصرين على بقائي معك فسوف أقبل هذه الدعوة ، ولتكن مرغريت أختاً جديدة لكاميل ومادلين .

السيدة فلورفيل :

– هل أنت جادة في قولك ؟

السيدة رسبورغ :

– طبعاً .. ولن أخيب رجاءك .

السيدة فلورفيل :

– شكراً لقبولك دعوتي .. وسوف أزفّ هذا النبأ إلى الفتاتين ، سيسعدهما ذلك .

دخلت السيدة فلورفيل إلى غرفة كاميل ومادلين اللتين تحفظان دروسهما باجتهاد ، ومرغريت تلهو بالدمى وتحكي لها حكايات بصوت خافت لئلا تزعج الفتاتين .

السيدة فلورفيل :

– سأعلن لكما النبأ السعيد الذي كنا نخشى أن لا يتحقق ، وهو أن السيدة رسبورغ ستبقى معنا .

كاميل :

– كيف يا أمي ؟ هل ستبقيان معنا دوماً ؟

السيدة فلورفيل :

– نعم على الدوام ، لقد وعدتني السيدة رسبورغ بذلك .

هتفت البنات الثلاث معاً :

– آه .. ما أسعدنا ..

وجرت مرغريت تقبل السيدة فلورفيل التي قالت لكاميل ومادلين :

– إذا أردتما أن أظل سعيدة معكما فأرجوكما أن تستمرا على الاجتهاد في دروسكما وأن تطيعا أوامري وأن يدوم الودُّ بينكن ، مرغريت أصغر منكما وسوف تتكفلان

بتعليمها بإشراف أمها وإشرافي أنا ، ولا تقصرا عليها بالنصائح المفيدة وكونا مثلاً أعلى تتبعه .

كاميل :

– لا تقلقي يا أمي سنرعى مرغريت أحسن رعاية مثلما فعلت أنت بالنسبة لنا ، وسوف أعلمها القراءة والكتابة وتعلمها مادلين الخياطة وترتيب أشيائها .. أليس كذلك يا مادلين ؟ .

مادلين :

– بالتأكيد .. وهي لطيفة لا تتعبنا .

وقالت مرغريت وهي تمسك بيدي كاميل ومادلين :

– سأكون عاقلة ، سأسمع كلامهما وأنفذ طلباهما .

كاميل :

– مرغريت ، إذا أردت أن تسمعي كلامي فاذهبي إلى الحديقة وتنـــزهي فيها مدة ساعة لأننا منذ بدأنا دروسنا وأنت جالسة ، وسوف تمرضين إذا بقيت على هذا الحال .

مرغريت :

– أرجوك يا كاميل ، سأبقى معك فأنا أحبك كثيراً .

ولاحظت مادلين أن أختها ستضعف وتترك الطفلة معها في الغرفة ، وإذا ضعفت مرة فلن تسمع مرغريت كلامها ، لذلك أمسكت الطفلة من يدها وفتحت الباب وقالت لها :

– يا عزيزتي مرغريت ، لقد طلبت منك كاميل الخروج ولم تنفذي طلبها فأنت لست عاقلة كما وعدتنا ، ولا تكون البنت عاقلة إلا إذا نفذت طلبات صديقاتها .. هيا تنــزهي ساعة ثم عودي إلينا .

رفعت مرغريت عينيها تتوسل إلى كاميل التي حولت عنها نظرها لئلا تضعف ، فهي تحبها أشد الحب ، وخرجت مرغريت إلى الحديقة .

كانت السيدة فلورفيل ترقب هذا المشهد صامتة ، ثم تقدمت إلى مادلين وقبلتها ثم قالت :

– أحسنت يا مادلين ، وأنت يا كاميل يجب أن تكوني أكثر شدة معها ، وإلا أفسدتها ، وافعلي مثل ما فعلت أختك .

ثم خرجت .

الفصل الرابع
الأزهار المقطوفة

قالت مرغريت لنفسها :

– إنني أسأم وحدي ، وكم تمنيت لو أبقى مع مادلين وكاميل في الغرفة ، و لكن مادلين قاسية علي على العكس من كاميل التي كانت تريدني أن أبقى ، وأنا لا أكره مادلين ولكني أفضل عليها كاميل لأنها تتركني أفعل ما أشاء ، والآن كيف أقضي الوقت وأتسلى ؟ لدّي فكرة .. سوف أنظف الحديقة وأكنسها .

جعلت تكنس الأوراق في الحديقة ، ثم خطر لها أن تجمع باقة من الأزهار تقدمها إلى كاميل ومادلين ، وفكرت : سأجمع باقة من الأزهار أضعها في غرفتهما ، وسوف تنتشر فيها الرائحة العطرة .

ونفذت فكرتها فجمعت أنواع الأزهار من ورد وياسمين وقرنفل وكل ما وقع تحت يدها ، وجعلتها في مئزرها كومة واحدة ، وبعد أن انتهت من عملها جرت إلى غرفة مادلين وكاميل وقالت لهما مبتهجة :

– انظرا ماذا جلبت لكما !

وفتحت مئزرها لترى الأزهار كلها ذابلة أو مكسورة الأوراق .

وتابعت قائلة :

– قطفت هذه الأزهار لنضعها في غرفتنا وينتشر عطرها .

وتبادلت مادلين وكاميل النظرات وهما تبتسمان لرؤية مرغريت محمرة الوجه ، وسألتها مادلين :

– أين قطفت هذه الأزهار يا مرغريت ؟

– في الحديقة .

– كل هذه الأزهار من الحديقة ؟

– كلها .. لم أترك زهرة في الحديقة إلا قطفتها ، حتى البراعم .

لقد سببت مرغريت لهما الألم دون أن تدري فهي صغيرة لا تعرف كيف تقطف الأزهار ، وكانت مادلين وكاميل تحتفظان بهذه الأزهار لمناسبة عيد الأم بعد غد ، وقد أفسدت عليهما هذه المتعة ، ولكنهما لم تجرؤا على توبيخها لأنها تظن أنّ ما فعلته مفاجأة جميلة .

وفوجئت مرغريت حين لم تسمع منهما كلمات الشكر ، وقرأت على وجهيهما الحزن والأسف ، فأدركت أنها فعلت شيئاً سيئاً وبدأت تبكي .

قالت لها مادلين :

– كم مرة قلنا لك ألاّ تلمسي شيئاً قبل أن تطلبي الإذن ، قطفت أزهارنا التي أردنا أن نقدمها إلى ماما بعد غد بمناسبة عيدها ، وكم تعبنا في زرعها وسقيها ورعايتها ،

فأفسدت كل شيء بلحظة واحدة ولم يعد لدينا شيء نقدمه لها .

قالت كاميل :

– لا نريد أن نوبخك لأننا نعلم أن نيتك طيبة ، ولم تفعلي هذا بدافع خبيث .

ولم تكف مرغريت عن البكاء ، فقالت لها مادلين :

– اسكتي الآن يا حبيبتي .. لسنا غاضبَتَيْن عليك ولكنك خالفت ما طلبناه منك .

ولاحظت كاميل ومادلين أن الطفلة شديدة الحزن وقد انتفخت عيناها من البكاء ، فحاولتا تهدئتها .

في هذه اللحظة دخلت السيدة رسبورغ ودهشت لرؤية مرغريت على هذه الحالة فسألت :

– ما بك يا بنيتي .. هل فعلت شيئاً مؤذياً ؟

قالت مادلين :

– لا .. يا سيدتي .. ولكننا نحاول إسكاتها .

السيدة رسبورغ :

– وماذا فعلت يا مرغريت ؟

ولم تستطع مادلين أن تشرح لها السبب ، وحاولت كاميل أن تتلفظ بعض الكلمات ولكنها غصّت بها وقد أحمر وجهها .

وزادت دهشة السيدة رسبورغ :

– قولي لي أنت يا مرغريت لماذا تبكين ؟

مرغريت :

– آه يا ماما .. كنت شريرة .. وآذيت صديقتيّ ، ولكن لم أقصد ذلك ، لقد قطفت الزهور التي كانت هدية في عيد الأم للسيدة فلورفيل ، وبدلاً من أن توبخاني حاولتا إسكاتي .. آه يا رب .. كم أحس بالأسى ! .

السيدة رسبورغ :

– أحسنت صنعاً إذ اعترفت بأخطائك ، ولكن على شرط ألا تعيديها ، ولو كنت مكانهما لعاقبتك ، ولكنهما طيبتان وتحبهما أمهما .

وتركت السيدة رسبورغ في الغرفة ثم نادت السائق وطلبت منه تجهيز العربة ، وبعد مدة قصيرة ذهبت إلى المدينة المجاورة التي لا تبعد أكثر من خمسة كيلو مترات ودخلت حانوت بائع الأزهار واختارت أجمل شتلات من الأزهار .

قالت السيدة رسبورغ لبائع الأزهار :

– أرجوك يا سيدي أن تحمل هذه الشتلات إلى السيدة فلورفيل ، وسوف أدلك على المكان الذي يجب أن تزرع فيه ، وعليك أن تتابع هذه العملية وتقوم بها ليلاً حتى تكون مفاجأة للفتاتين .

– لا تقلقي يا سيدتي ، بعد غروب الشمس سآخذ هذه الشتلات إلى المكان الذي ذكرته ، وأقوم بنفسي على العناية بها دون أن يراني أحد ، ولن أخالف أوامرك .

– كم تريد ثمن الأزهار والشتلات ؟

– أربعين فرنكاً .. هناك ستون شتلة بالإضافة إلى أجرة زرعها ، هل هذا غال ؟

– لا .. أبداً ، سأدفع ثمنها حين توصلها إلى القصر .

رجعت السيدة رسبورغ إلى القصر وأمرت خادمتها أن تنتظر بائع الأزهار عند المغيب ، وتتركه يزرع الشتلات في حديقة كاميل ومادلين ، ولم تلاحظ السيدة فلورفيل غيابها .

ما إن تركت السيدة رسبورغ البنات حتى أسرعن إلى الحديقة ، وفكرت كاميل :

– لعل هناك بعض الزهور لم تقطفها مرغريت .

وحين وصلن لم يجدن زهرة واحدة ، ونظرتا إلى الأزهار بحزن ، وترقرقت عينا مرغريت بالدموع ، وقالت مادلين :

– لا فائدة .. لم تبق زهرة واحدة ، سنحاول زراعة شتلات جديدة فيما بعد .

مرغريت :

– خذي كل دراهمي يا مادلين .. معي أربعة فرنكات .

مادلين :

– شكراً لك يا حبيبتي احتفظي بها للفقراء .

مرغريت :

– ولكن إذا لزمك المبلغ فلا تترددي في طلبها مني .

مادلين :

– نعم .. نعم ، سنفكر في هذا .. والآن يجب تحضير التراب لاستقبال الشتلات .

وبدأت الفتيات بتهيئة التراب ونزع الجذور والأوراق المتناثرة ورميها في الغابة .. ورأتهن السيدة رسبورغ فقالت :

– يا لكن من عاملات نشيطات .. التراب ملائم الآن لاستقبال الزهور ، وأنا واثقة أنها ستنبت من تلقاء نفسها .

– سيكون عندنا زهور قريباً .. سترين يا سيدتي .

– لا ريب في ذلك .. لأن الله يجزي الفتيات الطيبات أمثالكن .

بعد أن أنهين تهيئة الحديقة أعدن المعدات إلى مكانها ، ولعبن مدة ساعة قبل أن يحين موعد الغداء .

من الغد ، نهضت الفتيات باكراً لإتمام عمل البارحة ، وحين وصلن إلى الحديقة وقفن مذهولات ، فالحديقة حافلة بالزهور من كل نوع وأفضل مما كانت عليه قبل أن تقطف مرغريت أزهارها .

لم يجدن تفسيراً لوجود هذه الزهور ، ولكن الفرحة غمرتهن فجعلن يتنقلن كالفراشات من زهرة إلى زهرة ، يتأملن جمال هذه الحديقة التي نبتت في ليلة واحدة .

قالت كاميل :

– إنها معجزة من الله .

وقالت مادلين :

– إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقالت مرغريت :

– هل الملائكة هي التي زرعت هذه الحديقة .

في تلك الآونة وصلت السيدة فلورفيل ومعها السيدة رسبورغ فأشارت السيدة فلورفيل إلى صديقتها وقالت :

– هذه أحد الملائكة الذين زرعوا هذه الحديقة .

اشكرن السيدة رسبورغ على ما قامت به من جهد لكي تعدّ لكنّ هذه المفاجأة .

وسارعت الفتيات إلى معانقة السيدة رسبورغ .

من الغد ، كانت باقة كبيرة من أجمل الأزهار في غرفة السيدتين فلورفيل ورسبورغ بمناسبة عيد الأم .

الفصل الخامس

معاقبة كاميل

في مكان لا يبعد سوى خمسة كيلو مترات عن قصر فلورفيل تعيش فتاة صغيرة عمرها ست سنوات اسمها صوفي .

ماتت أمها في حادث غرق ، وتزوج أبوها ، ولكنه توفي هو أيضاً بعد زمن قليل ، وبقيت صوفي مع خالتها زوجة أبيها التي استقرت في المزرعة التي خلّفها لها زوجها ، وكانت تدعى السيدة فيشني . وفي بعض الأحيان كانت السيدة فيشني تزور قصر فلورفيل تصحبها الصغيرة صوفي .

ذات يوم ، حينما كانت الفتيات الثلاث متوجهات إلى النـــزهة توقفت عربة أمام القصر ونزلت منها السيدة فيشني وصوفي .

قالت لها كاميل ومادلين :

– صباح الخير يا صوفي ، تسرنا رؤيتك .. صباح الخير يا سيدتي .. مرحباً بك !

– مرحباً يا عزيزتيَّ ، سأذهب إلى القاعة لأرى والدتكن .. لا تقطعوا نزهتكن .. وهل يزعجكن اصطحاب صوفي معكن ؟ .

ثم التفتت إلى صوفي وقالت لها بصوت رهيب :

– وأنت يا آنسة صوفي كوني عاقلة ، فالعصا في انتظارك حين نعود .

لم تجبها صوفي وإنما أطرقت برأسها إلى الأرض ، فاقتربت منها السيدة فيشني وعيناها تقدحان شرراً :

– أين لسانك .. هل أكله القط ؟

– كما تأمرين .. يا ماما ..

فأدارت السيدة فيشني ظهرها وتوجهت إلى المنـــزل .

كانت كاميل ومادلين مذهولتين ، وأما مرغريت فقد اختبأت وراء صندوق برتقال .

قالت صوفي :

– لنذهب ، لا أريد أن أدخل القاعة لأن خالتي فيها .

كاميل :

– لماذا وبختك خالتك ؟

صوفي :

– لا لشيء ، هي هكذا دوماً .

مادلين :

– هيا إلى الحديقة .. لا أحد يزعجنا فيها ، هيا معنا يا مرغويت .

صوفي :

– من هذه الصغيرة ؟ لم أرها من قبل ! .

كاميل :

– إنها صديقتنا . لم تريها حين زرناك ، لأنها كانت مريضة ، واسمها مرغويت .

وحكت لها مادلين كيف تعرفوا على مرغويت وأمها ، فعطفت عليها صوفي وقبلتها وذهبن جميعاً إلى الحديقة .

صوفي :

– ما أجمل هذه الأزهار ، إنها أجمل من أزهاري . من أين حصلت على هذا البنفسج وتلك الورود ؟ ما أطيب رائحتها ؟

مادلين :

– إن السيدة رسبورغ أهدتنا كل هذه الأزهار .

مرغويت :

– انتبهي يا صوفي .. أنت تدوسين على شجرة الفريز .. عودي إلى الوراء .

صوفي :

– اتركيني أشم هذه الورود .

مرغويت :

– ولكنك تدوسين على شجرة الفريز .

صوفي :

– دعيني أيتها الحمقاء .

وكانت مرغريت قد أمسكت بقدم صوفي تمنعها من المشي ، فرفستها بقدمها ، فتدحرجت الصغيرة بعيداً عنها .

سرعان ما جرت مادلين وكاميل إلى صوفي وصفعتاها صفعة قوية . وبدأت صوفي تصرخ ومرغريت تبكي وتحاول مادلين إسكاتها ، وكانت كاميل محمرّة من الخجل .

وجرت السيدات الثلاث ، وبدأت السيدة فيشني بأن ضربت صوفي .

صوفي :

– هذه ثاني واحدة ، ثاني واحدة .

السيدة فيشني :

– ثاني أي شيء يا حمقاء ؟

صوفي :

– ثاني صفعة ألقاها .

السيدة فيشني :

– ولماذا تكذبين ؟

كاميل :

– إنها لا تكذب ، لقد صفعتها فعلاً .

السيدة فلورفيل :

– ماذا تقولين يا كاميل ؟ أنت الفتاة الطيبة تصفعين ضيفتك صوفي التي جاءت لزيارتك ؟

كاميل :

– نعم يا ماما .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا فعلت هذا ؟

كاميل :

– لأنها .. لأنها ..

ولكن صوفي نظرت إليها تتوسلها فتابعت كاميل :

– لأنها داست فوق شجرة الفريز .

مرغريت :

– بل لأنها ضربتني ودافعت كاميل عني .

ورأت السيدة فلورفيل أن هناك شيئاً ما بين الفتاتين قد حدث ولا تريدان إحراج السيدة فيشني ولا صوفي ، فتوجهت إلى كاميل وقالت لها :

– اصعدي إلى غرفتك ولا تنــزلي منها لأنك محرومة من العشاء ومن كل أنواع الحلويات .

وانفجرت كاميل بالدموع وقالت لصوفي :

– أرجوك أن تسامحيني ، فقد تسرّعت ولم أمسك أعصابي ولن أعود إلى ذلك ثانية .. أعدك .

لم تكن صوفي شريرة بطبعها فعانقت كاميل وهمست لها :

– لو أنك قلت لخالتي إني دفعت مرغريت لأشبعتني ضرباً بالعصا .

فضغطت كاميل على يدها ومضت إلى البيت باكية ، وبكت مرغريت ومادلين لبكائها .

قالت مرغريت لنفسها :

– صوفي هذه شريرة .. وقد تسببت بالحزن والألم لصديقتي كاميل وأنا أكرهها .

صعدت السيدة فيشني وصوفي إلى عربتهما ، ولم تكد تنطلق العربة بهما حتى بدأت خالتها تعاتبها وتوبخها ، ثم ارتفع صوت صوفي بالبكاء إذ جذبتها من شعرها .

وحكت مادلين ومرغريت للسيدة فلورفيل ما حدث في الحديقة وكيف تصرفت صوفي مع مرغريت .

قالت السيدة فلورفيل :

إن ما سمعته منكما يخفف من غضبي عليكما ، ولكنها ما تزال مخطئة لأنها لم تسيطر على أعصابها وصفعت طفلة أصغر منها جاءت لزيارتها ، وسوف أسمح لها بالخروج من غرفتها ، ولكنها محرومة من العشاء والحلويات .

وسارعت مرغريت ومادلين إلى كاميل لتزفا إليها نبأ الإفراج عنها ، فتحسرت ولم تفارقها الكآبة .

يجب القول إن لدى كاميل العاقلة المهذبة عيباً هو الشراهة ، فهي تحب الأشياء الحلوة وخاصة الفواكه ، وكان خالها قد أرسل إليهم بعض الدراق والعنب من باريس ، وحرمانها يُعَدّ عقوبة كبرى ، لذلك طفرت الدموع إلى عينيها .

قالت لها مادلين :

– هل أنت حزينة من أجل الفواكه .

كاميل :

– طبعاً .. فالكل سيأكلون الدراق والعنب إلا أنا .

مادلين :

– سأمتنع أنا عن أكل الدراق والعنب ، هل هذا يرضك ؟

كاميل :

– لا .. لا أريدك أن تحرمي نفسك من أجلي .

مادلين :

– لا ، لا يا أختي .. لن أستمتع بأكل شيء أنت محرومة منه .

عانقت كاميل أختها وشكرتها على صدق إحساسها ، وطلبت منها مادلين ألا تتحدث عن هذا القرار أثناء العشاء لأن أمهما لا تريد أن تتضامنا ضدها .

جاء وقت العشاء ، وكانت الفتيات الثلاث حزينات ، وكانت الحلوى هي الرز بالحليب الذي تحبه مادلين .

السيدة فلورفيل :

– مادلين ، أعطيني صحنك حتى أسكب لك شيئاً من الحلوى .

مادلين :

– شكراً يا أمي لن آكل منه .

السيدة فلورفيل :

– لن تأكلي منه وأنت تحبينه ؟

مادلين :

– لقد شبعت .

السيدة فلورفيل :

– لقد طلبت مني أن أزيدك بعض البطاطا ، وكنت جائعة منذ قليل .. فماذا حدث ؟

مادلين :

– لم أعد جائعة .. هذا كل شيء .

ونظرت السيدة فلورفيل إلى مادلين وهي محمرّة الوجنتين تتلعثم في كلامها ، فأدركت أن هناك شيئاً تخفيه البنات عنها ولكنها لم تشأ إحراجهن ، وأحضرت الخادمة سلّتي الفاكهة ، سلة من الدراق وأخرى من العنب ، فامتلأت عينا كاميل بالدموع لأن أختها حرمت نفسها من أجلها .

وألقت مادلين على السلتين نظرةَ اشتهاء ، ولكنها سيطرت على نفسها ، وحين سألتها أمها :

– هل تأكلين الدراق أم التفاح ؟

أجابتها :

– لا .. لن آكل الفاكهة .

فأصرّت السيدة فلورفيل :

– كلي على الأقل عنقوداً من العنب ، إنه رائع .

فأجابت مادلين :

– لا يا ماما .. أحس بالتعب .. سأذهب لأستريح .

فسألتها أمها بقلق :

– ألست مريضة ؟

– لا يا ماما .. أنا بصحة جيدة .. ولكن أحس برغبة في النوم .

ونهضت مادلين وقبّلت أمها ثم ذهبت إلى غرفتها .

وكانت السيدة فلورفيل تحسّ بشيء يُدبّر في الخفاء ولا تعرف ما هو .

قالت كاميل :

– آه .. ما أطيب أختي وما أرقّ إحساسها .

قالت السيدة فلورفيل :

– ما بها أختك مادلين ! ترفض أكل الحلوى وترفض أكل الفواكه وتذهب للنوم باكراً .

– إن أختي طيبة رقيقة القلب ، وقد حرمت نفسها من الحلوى والفواكه تضامناً معي ، وذهبت إلى النوم خوفاً من ألا تستطيع المقاومة أطول من ذلك .

ضحكت السيدة فلورفيل وقالت :

– تعالي معي نذهب إليها .

وصعدتا معاً إلى غرفة مادلين التي كانت تتأمل صورة أختها كاميل . قالت السيدة فلورفيل وهي تعانقها :

– إن كرمك وطيبة قلبك يمحوان خطأ أختك ، وقد سامحتها إكراماً لك ، وهذه هي الحلوى والفواكه جئت بها إليك لتأكليها مع أختك .

ودخلت إليزا في هذه اللحظة تحمل صينية مملوءة بالحلوى والعنب والدراق .

هبطت السيدة فلورفيل لتجالس السيدة رسبورغ وبقيت كاميل ومادلين مع إليزا ، وتناولت الثلاث ما في الصينية من حلوى وفواكه .

وحكت كاميل لإليزا عن كرم أخلاق أختها ، ثم حملت إليزا الصينية وخرجت . بعد قليل نامت الفتاتان متعانقتَيْن تحلمان بما حدث معهما طول النهار .

الفصل السادس

القنافذ

ذات يوم كانت كاميل ومادلين جالستين تقرآن في الحديقة حينما رأتا مرغريت تجري إليهما وهي تصيح :

– كاميل ، مادلين ، تعاليا انظرا إلى القنافذ التي أمسكنا بها ، إنها أربعة : الأم وثلاثة أولاد .

وجرت الطفلتان سريعاً لرؤية القنافذ التي كانت داخل السلة .

كاميل :

– ولكننا لا نرى سوى كرة من الشوك لا رأس لها ولا أرجل .

مادلين :

– تكورت القنافذ على نفسها .. وأخفت رأسها وأرجلها .

كاميل :

– سنرى .. سأخرجها من السلة .

مادلين :

– ولكنها تشوّك .. فكيف ستفعلين ؟

كاميل :

– سترين .

أمسكت كاميل السلة وقلبتها ، وتناثرت القنافذ على الأرض ، وبعد لحظات بسط القنفذ الصغير جسمه وأخرج رأسه وبدأ يمشي ، وفرحت البنات ولكنهن لم يتحركن لئلا يفزع القنفذ ، ثم بدأت الأم تبسط جسدها وتمد رأسها ، وترددت قليلاً ثم أخرجت رأسها كله ، ونادت صغارها وهربت معها .

صرخت مرغريت :

– القنافذ تهرب .. إنها تجري نحو الغابة .

وجاء الحارس وقال :

– ما كان ينبغي أن تخرجوها من السلة ، يصعب عليّ الإمساك بها الآن .

ولحق بالقنافذ التي كانت تجري مسرعة ولا يكاد يلحق بها ، وكادت تصل إلى قرب شجرة السنديان لتختبئ فيها ، حتى سُمِعَتْ طلقة وتدحرجت الأم ميتة .

ورأى الصغار أن أمهن توقفت فوقفن أيضاً .

كان الحارس الذي أطلق النار على الأم قد سارع إلى الإمساك بصغار القنافذ ورماها في جعبته ، وجرت كاميل ومرغويت ومادلين ، وصرخت فيه كاميل :

– لماذا قتلت هذه الأم المسكينة يا نيكوس الملعون ؟

مادلين :

– سوف يموت الصغار من الجوع الآن .

نيكوس :

– لا ، لن تموت من الجوع بل سأقتلها بيدي .

مرغويت :

– آه .. يا للصغار ! أرجوك لا تقتلها .

نيكوس :

– بل يجب أن أقتلها ! فالقنفذ حيوان مفسد يقتل الأرانب والطيور ، وهي ما تزال صغيرة ، ستموت بعد أمها .

كاميل :

– سأطلب من أمي أن تنقذ الصغار .

وجرت الفتيات إلى القاعة حيث تعمل السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ .

مادلين :

– ماما .. أرجوك أنقذي صغار القنافذ ، يريد نيكوس أن يقتلها بعد أن قتل أمها .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا فعل هذا ؟

كاميل :

– اذهبي بسرعة .. إنه لا يصغي إلينا .. أنقذي الصغار .

السيدة رسبورغ :

– لا أفهم شيئاً مما تقولون .. مادلين اشرحي لي ما حدث .

مادلين :

– لقد قتل نيكوس أم القنافذ وسيقتل الصغار أيضاً ، وهو يزعم أن القنافذ تقتل الأرانب .

كاميل :

– وأظنه يكذب فالأرانب لا تأكل إلا الحشرات الضارة .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا يكذب يا كاميل ؟

كاميل :

– لأنه يريد قتل هذه الصغار .

السيدة فلورفيل :

– هل تظنينه شريراً لأنه يريد قتل الصغار ؟ هل هو حاقد عليها ؟

كاميل :

– لا أدري ، قد أكون مخطئة ، ولكن أنقذي هذه الصغار اللطيفة .

السيدة رسبورغ :

– القنافذ اللطيفة ؟ هذا مستحيل ، ولكننا سنرى بأنفسنا ما يحدث ، وإذا أمكن إنقاذها أنقذناها .

وتوجهت السيدتان مع الفتيات الثلاث إلى طرف الغابة حيث تركن الحارس مع القنافذ ، فلم يجدن الحارس ولا القنافذ ، لقد اختفوا جميعاً .

كاميل :

– يا رب .. لا ريب أن نيكوس قد قتل هذه الصغار .

السيدة فلورفيل :

– هيا نتحقق من ذلك ، سنذهب إلى مسكن الحارس .
واقتحمنه دون استئذان .

مرغريت :

– أين القنافذ ؟ أين وضعتها ؟

كان الحارس يتغدّى مع زوجته فنهض ببطء وقال :

– لقد رميتها في البركة قرب المسكبة .

كاميل :

– آه هذا عمل غير صالح .. ماما لقد رماها في الماء .

السيدة فلورفيل :

– استعجلت يا نيكوس ، البنات يردن الاحتفاظ بها .

نيكوس :

– لا يمكن الاحتفاظ بها لأنها ستموت خلال يومين ،
ومهما يكن فالقنافذ جنس شرير يجب إتلافه .

التفتت السيدة فلورفيل إلى الفتيات وقالت :

– أعتقد أن السيد نيكوس قد أدّى واجبه ، لأننا
لا نعرف كيف نطعم هذه الصغار ، وكيف نرعاها ، وهي
صغيرة جداً .

لم تجد الفتيات بداً من الرضوخ للأمر الواقع ، وإن
كانت نفوسهن تحسّ بالشفقة على هذه القنافذ الصغيرة ،
وانصرفن إلى دراستهن .

بعد قليل وصلت صوفي راكبةً حماراً وترافقها مربيتها ،
وقد أعلنت السيدة فيشني أنها قادمة للعشاء وقد أرسلت
صوفي قبلها .

صوفي :

– صباح الخير يا صديقاتي ، صباح الخير مرغريت ..
لماذا تبتعدين عني ؟

مرغريت :

– لقد تسببت في معاقبة كاميل ، وأنا لا أحبك .

كاميل :

– اسمعي يا مرغريت .. أستأهل هذه العقوبة لأني فقدت أعصابي ، ويجب على الإنسان أن يسيطر على نفسه .

مرغريت :

– لقد غضبت من أجلي ، ولذلك أحبك .

وبدأت صوفي تحس بالغضب يتملكها ، ولكنها حينما رأت الحنان الذي تعامل به كاميل الطفلة الصغيرة ، اقتربت من كاميل وقالت لها والدموع تطفر من عينيها :

– كاميل ، إن مرغريت على حق وأنا المخطئة ، وقد بادرت إلى دفع مرغريت وأسقطتها أرضاً ، وأستأهل تلك الصفعة فأرجو أن تسامحاني ، ولن أعود إليها أبداً ، إني تعيسة ..

حينئذٍ سارعت مادلين ومرغريت وكاميل إلى صوفي وعانقنها وأمسكن بيديها ، وقلن لها :

– لا تبكي يا صوفي فنحن نحبك كثيراً وسوف نسليك ونخفف عنك أحزانك .

قالت صوفي وهي تجفّف دموعها :

– شكراً جزيلاً لكنّ يا صديقاتي .. سأحاول الاقتداء بكنّ فأكون وديعة طيبة الخلق أسيطر على تصرفاتي ، ولو كان عندي أم مثل أمكنّ لتغيرت حالتي ، ولكني فقدت حنان الأم وعطفها وليس لي أب يرعاني ويحوطني بعنايته ، وهذه خالتي لا توجهني إلى ما يجب عمله بل تضربني إن أخطأت .

قالت مرغريت :

– آه يا صوفي المسكينة .. آسفة لأني حقدت عليك .

قالت صوفي :

– لا تأسفي لأني تصرفت تصرفاً يستأهل الحقد والكراهية .

واستأذنت كاميل ومادلين من صوفي أن ينهيا وظائفهما المنـــزلية وسوف تنضمان إليها بعد نصف ساعة .

مرغريت :

– هل تأتين معي يا صوفي ، أنا ليس عندي وظائف .

صوفي :

– حسناً .. سنركض معاً .

مرغريت :

– سأحكي لك ما حدث لثلاثة من القنافذ وأمهن .

وحكت لها مرغريت ما حدث للقنافذ وهما تتمشيان .

صوفي :

– وأين رميتم هذه القنافذ ؟

مرغريت :

– في البركة قرب المسكبة .

صوفي :

– هيا نراها .. سنلهو كثيراً .

مرغريت :

– ولكن لا يجوز الاقتراب من الماء ، ماما منعتني من هذا .

صوفي :

– لا .. لا .. سوف نتفرج عليها من بعيد .

وأسرعتا إلى البركة ، فلم تريا شيئاً من بعيد فاقتربتا قليلاً .

صوفي :

– هذا واحد .. هذا واحد لم يمت ، إنه يتحرك .. اقتربي .

مرغريت :

– نعم ، إني أراه ، إنه يتحرك .. والآخران ماتا .

صوفي :

– ما رأيك أن نغطّسه في الماء أكثر حتى يموت ، إنه يقاسي .

مرغريت :

– معك حق ، هذا صغير بائس ، إنه يقترب منا .

صوفي :

– إليك عصا طويلة ، اضربيه على رأسه فيغطس .

مرغريت :

– لا .. لا أريد قتل هذا المسكين .. وماما لا تريدني أن أدنو من الماء .

صوفي :

– لماذا ؟

مرغريت :

– لأنه قد تنـــزلق قدمي وأغرق .

صوفي :

– لا خطر عليك من هذا .

مرغريت :

– لا يجوز عصيان ما تقوله الأم .

صوفي :

– أما أنا فلا أحد منعني من شيء ، لذلك سأغرق القنفذ .

واقتربت صوفي من الماء حذرة ، وضربت رأس القنفذ ضربةً قويةً بالعصا الممسكة بها ، فغاص في الماء برهة ثم طفا على سطحه وهو يتلوى .

فأعادت صوفي الضرب ثانية ولم تستطع أن تنال منه إلا إذا مدت ذراعها ، وحين هبطت العصا اختل توازنها وسقطت في الماء ، فأطلقت صرخة يائسة واختفت .

حاولت مرغريت أن تنقذها فمدّت إليها يدها ، فأمسكت صوفي بها وجذبت أعلى جسمها فوق الماء ، ثم مدت مرغريت يدها الثانية فأمسكت بها صوفي ، لكنها كانت أثقل من مرغريت فسقطت في الماء .

ولم تفقد مرغريت ثقتها بنفسها ، فقد تذكرت أن السيدة فلورفيل تقول : إذا مسَّ أحد بقدميه الأرض فما عليه إلا أن يضربها بقدميه ليطفو إلى أعلى .

وضربت الأرض ضربة قوية ، فوجدت نفسها فوق سطح الماء ، فأمسكت بعمود قريب وخرجت من البركة .

لم تعد ترى صوفي ، فجرت والماء يقطر منها وهي تصيح :

– النجدة .. النجدة ..

وسمع صوتها بعض الفلاحين فسارعوا إليها ، صرخت :

– أنقذوا صوفي .. أنقذوا صوفي ، إنها في البركة .

جاءت إحدى الفلاحات بمذراة طويلة ، وأمسكت بها ثوب صوفي الذي يطفو على سطح الماء وجذبتها بصعوبة ، لقد نسيت مرغريت في غمرة خوفها على صوفي الخطَر الذي واجهته بنفسها ، ولم تعد تفكر إلا في إنقاذها والدموع تتقاطر من عينيها ، وهي تدعو الفلاحين إلى إنقاذها ، وجرت كاميل ومادلين لسماع الضوضاء ، وأضافتا إليها بكاءهما وصراخهما .

وسمعت السيدتان هذه الضجة العارمة فأسرعتا إلى البركة ، وأطلقتا صرخة عالية حينما رأتا مرغريت على هذه الحال .

وهتفت السيدة رسبورغ :

– ماذا جرى لك يا بنيتي ؟ لماذا تصرخين ؟

– ماما .. ماما .. صوفي تغرق .

قالت لها تهدئها :

– لا تخافي .. لا تخافي .. لقد أُنقذتْ صوفي .

– ومن أنقذها ؟ لم أر أحداً بجانبنا !

– أسرعت إليها الفلاحات وأنقذنها .

وحين تأكدت مرغريت من نجاة صوفي انهارت على الأرض ، فحملتها أمها ودخلت بها إلى البيت ، وبعد أن جففت شعرها وبدلت ثيابها طلبت منها أمها أن تروي لها ما حدث .

فأرجعت سبب سقوط صوفي في الماء إلى إصرارها على ضرب القنفذ والاقتراب من البركة على الرغم من تحذيرها لها .

قالت لها أمها وهي تعانقها :

– أرأيت كيف أن الماء شيء خطير ؟ وكيف كنتُ على حق حين منعتك من الاقتراب من البركة ، ولكنك تصرفت بحكمة وشجاعة .. فهيا نرى كيف أصبحت صوفي .

حملت السيدة فلورفيل صوفي تصحبها كاميل ومادلين وإليزا فجففت شعرها وألبستها ثياب كاميل ، حينئذٍ انفتح الباب ودخلت السيدة فيشني واندفعت قائلة :

– كيف تجرؤين على الاقتراب من البركة وتوسيخ ثيابك ؟ وهل تدفعك حماقتك إلى هذا الحد ؟ انتظري حتى أريك كيف تكونين أكثر حذراً في المستقبل .

وقبل أن يتمكن أحد من اعتراضها سحبت من تحت شالها قضيباً غليظاً وانهالت عليها ضرباً ، وعلى الرغم من بكاء الصغيرة وبكاء مادلين وكاميل وتوسلاتهما وتدخل السيدة فلورفيل وإليزا ، فإنها لم تتوقف حتى تكسّر القضيب بيديها ، فرمته وخرجت من الغرفة ، ولحقت بها السيدة

فلورفيل لتعبّر لها عن سخطها على هذه العقوبة الظالمة القاسية ، فأجابتها السيدة فيشني :

– صدقيني يا سيدتي .. إن العصا خير وسيلة لتربية الأولاد ولا أعرف وسيلة سواها .

وتمنت السيدة فلورفيل أن تقطع علاقتها بهذه المرأة القاسية ، ولكنها أشفقت على صوفي لئلا تحرمها من دعمها أمام خالتها ، فناقشت معها مساوئ العقوبة الجسدية وتأثيرها على الأطفال ، ولكنها اصطدمت بقلبها المتيبس وعقلها المتجمد وصبرت عليها رغماً عن ذلك .

حينما دخلت السيدة روسبورغ ومرغريت الغرفة وجدتا كاميل ومادلين تبكيان ومعهما صوفي وهي تشهق بالبكاء والألم ، وقد ترك القضيب على جسدها الصغير آثاراً زرقاء وحمراء ، سألتهما مرغريت والدموع بعينيها :

– لماذا تبكيان ؟ وماذا أصاب صوفي ؟

– إن خالتها قد أشبعتها ضرباً .. يالصوفي المسكينة !

والتفت الفتيات حول صوفي يواسينها ويخففن عنها آلامها .

وروت إليزا للسيدة روسبورغ كيف أن السيدة فيشني لم تر في حادثة صوفي سوى ثوبها الموسخ ولم تنتبه إلى أن الصغيرة قد كانت على قيد شَعْرةٍ من الموت ، فتأثرت السيدة روسبورغ أشد التأثر ولكنها لم تقطع علاقتها بالسيدة فيشني للأسباب المذكورة .

كم بذلت كاميل ومادلين ومرغريت من جهد ليكنّ لطيفات مع السيدة فيشني على مائدة العشاء ! ولم تكن صوفي المسكينة لتجرؤ على الكلام أو رفع عينيها عن صحنها . وبعد العشاء خرجت البنات للّعب في الباحة ، وحين انصرفت السيدة فيشني وعدت بأن ترسل إليهم صوفي دوماً لترفه عن نفسها مع البنات .

وقالت السيدة فلورفيل :

– ما دمت مصرة على استقبال هذه المخلوقة التعيسة فإنه يسعدني أن أتخلص منها أطول وقت ممكن ، فهي تفسد علي بسوء أخلاقها كلّ زياراتي للجيران ، إلى اللقاء أيتها السيدات .. واصعدي أنت يا حمقاء .

وضربت بيدها قفا صوفي .

بعد أن انطلقت العربة ، لم تشأ كاميل ومادلين أن تلعبا لشدة حزنهما ، ودخلتا إلى القاعة تفكران مع السيدة روسبورغ بطريقة يخلّصن بها الصغيرة صوفي من يدي خالتها الشريرة ، أما مرغريت فكانت قد ذهبت إلى النوم منذ زمان طويل ، وذهبت كذلك كاميل ومادلين إلى النوم وهما تفكران بآلام صوفي وتحمدان الله على أنه وهبهما أماً عطوفاً .

الفصل السابع

الدمية المبللة

ذات يوم نظمت السيدة فلورفيل لعبة يا نصيب بين البنات ، وربحت صوفي مجموعة من الأقلام الملونة والكتب المصورة ، وربحت كاميل مكتباً مع مائة صورة للحيوانات وما يلزم للرسم والتلوين ، وربحت مادلين أربعين قصة وعلبة فيها أدوات الخياطة ، وأما مرغريت فربحت دمية جميلة من الشمع وملابس كاملة لها ، ونادت كاميل ومادلين لتريا الدمية وتلعبا معها ، فقضين ذلك اليوم في العناية بالدمية وتبديل ملابسها وتهيئة سريرها .

بعد الظهر من ذلك اليوم نادتهن السيدة فلورفيل :

– كاميل ، مادلين ، مرغريت ، أسرعن ، سنقوم بنـــزهة .

كاميل :

– أسرعي مرغريت .. اتركي الدمية وتعالي معنا .

مرغريت :

– لا .. سآخذ الدمية معي .. أريدها أن تبقى معي دوماً .

مادلين :

– إذا أخذتها معك حيث تذهبين فسوف تتسخ .

مرغريت :

– سأحملها ولا أجعلها تتوسخ .

كاميل :

– دعيها تأخذها معها يا مادلين ، سترى أن الدمية تُعيقها عن الجري .

وأصرت مرغريت على أخذ دميتها معها وأسرعن إلى السيدة فلورفيل .

سألتها كاميل :

– أين سنذهب يا ماما ؟

– إلى طاحون الغابة .

وظهر الأسف على وجه مرغريت لأن الطاحون بعيد والدمية ثقيلة على ذراعيها الصغيرتين .

حينماوصلن إلى منتصف الطريق خشيت السيدة فلورفيل أن تتعب البنات ، فجلست تحت شجرة وطلبت منهن الاستراحة قليلاً ، ثم أخذت كتاباً من جيبها وجلست مرغريت بجانبها ، وأما كاميل ومادلين فكانتا تجريان هنا وهناك تقطفان الأزهار وتجمعان الفريز .

هتفت مادلين :

– كاميل .. تعالي بسرعة هنا شجرة مملوءة بالفريز .

ونادت كاميل مرغريت :

– مرغريت تعالي بسرعة لتقطفي الفريز .

وسارعت مرغريت لتقطف الفريز مثل صديقتيها ولكن الدمية ضايقتها فهي لا تستطيع حملها وقطف الفريز معاً .

فهمست :

– ماذا أفعل يا رب بهذه الدمية المزعجة ، فلا أستطيع الجري ولا قطف الفريز ، سأضعها تحت شجرة السنديان هذه فوق العشب .

وضعت الدمية تحت شجرة السنديان وانطلقت تجري خفيفةً تجمع الفريز .

بعد ربع ساعة نظرت السيدة فلورفيل إلى السماء فرأتها مغطاة بالسحب ، فطوت كتابها ونادت البنات :

– بسرعة .. بسرعة يا بنات ، سنعود إلى البيت فالعاصفة تقترب ، لنسرع قبل أن يسقط المطر .

أسرعت الفتيات يحملن الفريز ، وقدمنه إلى السيدة فلورفيل .

السيدة فلورفيل :

– ليس عندنا الوقت لأكل الفريز ، احملنه معكن ، فالسماء قد اسودت بالسحب ، وهذا الرعد يقصف .

مرغريت :

– آه .. يا رب ! إني خائفة .

السيدة فلورفيل :

– لماذا تخافين ؟

مرغريت :

– أخاف من الرعد وأخشى أن يسقط فوقي .

السيدة فلورفيل :

– لا تخافي من الرعد فالله قد خلق الطبيعة وسخّرها لنا ، وما الرعد سوى اصطدام الغيوم قبل هطول المطر ، وأنت تعلمين أن المطر ضروري لحياة الإنسان والحيوان والنبات .

مرغريت :

– ولكن صوته مخيف .

مادلين :

– لقد اشتدت الريح .

السيدة فلورفيل :

– إنها الريح التي تسبق العاصفة ولن تمر عشر دقائق حتى تمر علينا ، فلنسرع .

كانت العاصفة أسرع منهن ، فقد بدأت بزخّات من المطر ، ثم سقطت قطرات ثقيلة واشتدت قوة الريح فأطارت الأوراق اليابسة وحركت أغصان الأشجار ، وقلبت البنات تنوراتهن على رؤوسهن وهن ضاحكات من عصف الريح التي تنفخ في التنورات كما تنفخ في أشرعة السفينة ، وكن يأملن أن يبلل المطر أجسامهن ، ولكنهن وصلن بسرعة قبل أن يهطل البَرَد الذي يلسع الوجوه لسعاً .

حين وصلن إلى القصر قالت لهن السيدة فلورفيل :

– هيا .. لتبدل كل واحدة منكنّ ملابسها وتجفف شعرها قبل أن تصاب بالبرد أو بنـــزلة صدرية .

وصعدت إلى غرفتها لتبدل ملابسها المبللة .

لم يكن ممكناً الخروج بقية المساء ، فالمطر ينهمر بغزارة والبنات يلعبن داخل البيت ، وشاركتهن السيدة فلورفيل

والسيدة رسبورغ ألعابهن حتى الساعة الثامنة ، وحان وقت نوم مرغريت ، وتعبت مادلين وكاميل من اللعب فتناولت كل منهما كتاباً تقرؤه بانتباه .

حينئذٍ ظهرت مرغريت تبكي وهي حافية القدمين لابسة قميص نومها ، فرمت مادلين وكاميل الكتابين وهرعتا إليها ، وكذلك فعلت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ تتساءلان عن سبب بكائها .

كانت الدموع تمنع مرغريت من الجواب ، فتفحصت أمها يديها وقدميها وكل جسمها لتتأكد من أنها غير مصابة بالجروح ، ولم تعرف سبب بكائها ، ثم استعادت مرغريت أنفاسها وهي تقول بشكل متقطع :

– دميتي .. تركتها هناك تحت الشجرة .

وتساءلت السيدة رسبورغ :

– دميتك الجديدة تحت الشجرة .. كيف هذا ؟

– أخذتها معي للنــزهة .. وأجلستها تحت شجرة السنديان لأنها تضايقني في جمع الفريز .. وحين فاجأتنا العاصفة هربنا بسرعة وخفت من الرعد فنسيتها تحت الشجرة .

– لعل الشجرة تحجب عنها المطر ، ولكن لماذا أخذتها معك ؟ لقد قلت لك دائماً إن الدمية تضايق حينما نكون في نزهة .

قالت مادلين :

– لقد نصحناها ولم تسمع كلامنا .

قالت الأم :

– أرأيت كيف يعاقب الله الشخص العنيد ؟ لقد شاء الله أن تنسيها وتقضي الليلة قلقة عليها ، لعل المطر والبرد قد أفسداها ، أو بعض الحيوانات قد مزقتها أو سرقها أحد العابرين .

قالت مرغريت جزعة :

– أرجوك يا ماما .. أرسلي أحد الخدم ليأتيني بها ، سأصف له مكان الشجرة فلا يخطئها .

– كيف تريدين أن أرسل أحد الخدم المساكين في ظلام الليل والعاصفة على أشدها ؟ قد يصيبه البرد أو يهلكه ذئب ، أهذا ما يأمر به قلبك الرحيم ؟!

– ولكن دميتي ، دميتي البائسة .. ما مصيرها ؟ سيبللها المطر وتوسخها العاصفة أو تنسفها الريح .

– يا حبيبتي إن ما أصابك من عمل يديك ، ولكني مشفقة على تلك الدمية .. وأرجو من الله أن نجدها غداً على أحسن حال ، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً الآن .

ذهبت مرغريت إلى غرفتها مطرقة الرأس ، وقد عزمت على ألا تنام ، وبكت عدة دقائق ثم غلبها النعاس ولم تستيقظ إلا صباح الغد .

كان الجو رائعاً .. هبطت مرغريت من سريرها لترتدي ملابسها و تجري بسرعة لإحضار دميتها .

بعد أن غسلت يديها ووجهها ومشطت شعرها وتناولت فطورها كان الجميع بانتظارها للذهاب إلى الغابة بحثاً عن الدمية ، وهتفت البنات :

– هيا يا ماما .. لنذهب ، نحن مستعدات .

– هيا .. لنسرع الخطا .. فالدمية قد أمضت ليلة سيئة تحت المطر .

كان الجميع يحث خطاه للوصول إلى الغابة ، وقد سيطر عليهن الفضول لرؤية الدمية ، وقلب مرغريت يزداد خفقاناً كلما اقتربت من الغابة .

قالت :

– أرى من هنا شجرة السنديان التي تنام الدمية تحتها .

وبعد دقائق وصلن إلى الشجرة ، فلم يجدن للدمية أثراً ، ونظرت مرغريت إلى صديقتيها مذهولة ، وسألتها أمها :

– هل أنت متأكدة من أنك تركتها هنا ؟

– طبعاً يا ماما .

قالت مادلين :

– وهذا دليل على أنها كانت هنا .

والتقطت من الأرض فردة حذاء الدمية المصنوعة من الحرير الأزرق ، أمسكت مرغريت بفردة الحذاء وتأمّلتها ثم جعلت تبكي ، ولم ينطق أحد بحرف .

اتخذت السيدتان طريق العودة تتبعهما البنات والكل يتساءل :

– ماذا جرى للدمية ؟ ومن أخذها ؟ قد يكون المطر بللها أو وسخها ولكنه لا يجرفها ! والذئاب لا تأكل الدمى .

حين وصلن إلى القصر كانت الكآبة تعلو وجوههن ، وأما مرغريت فصعدت إلى غرفتها وجمعت ملابس الدمية وحوائجها وجعلتها في درج واحد ، ثم أغلقته بالمفتاح ومضت به إلى كاميل وقالت لها :

– خذي ! هذا مفتاح طاولتي ، احفظيه معك وحين يكون معي المال الكافي سأشتري لعبة مثلها وألبسها ثيابها .

ولم تجبها كاميل بل تناولت المفتاح وقبلتها على جبينها وهي تهمس :

– مرغريت البائسة .

وأما مادلين فلم تقل شيئاً ، وكانت تفكر والحزن بادٍ على وجهها ، وفجأة أشرق وجهها فنهضت وأسرعت إلى خزانتها وأخذت منها حصّالتها ثم رجعت إلى مرغريت قائلة :

– خذي يا عزيزتي اشتري دمية جديدة ، كنت قد وفرت خمسة وثلاثين فرنكاً لأستكمل مجموعة كتبي ، وأحمد الله لأني لم أفعل ، ولا أحتاجها ، اشتري بها دمية مثل دميتك المفقودة .

احمر وجه مرغريت فرحاً وقالت :

– شكراً لك يا مادلين .. ما أطيب قلبك ! سأطلب من ماما أن تشتري لي دمية جديدة .

وجرت إلى السيدة رسبورغ التي وعدتها بأن تشتري لها دمية جديدة حينما تسافر إلى باريس .

الفصل الثامن
جانيت السارقة

تلقت مادلين ما تستحقه من المديح على كرمها وتضحيتها ، وكانت قد مرت ثلاثة أيام منذ اختفاء الدمية ومرغريت تنتظر بفارغ الصبر ذهاب أحد إلى باريس ليجلب لها الدمية الموعودة ، وكانت أثناء ذلك تلهو بدمية مادلين .

الجو حار والبنات قد جلسن تحت ظلال الأشجار الوارفة : مادلين تقرأ وكاميل تضفر للدمية إكليلاً من الأعشاب على حين تمشط لها مرغريت شعرها . ومرت بجانبها سوزان الخبّازة تحمل إلى المطبخ رغيفي خبز ، فتوقفت أمامها وهي ترقب الدمية بانتباه ثم قالت :

– إن دميتك جميلة جداً يا آنسة .

مرغريت :

– ألم تري أجمل منها يا سوزان ؟

سوزان :

– رأيت أجمل من دميتك هذه البارحة .

مرغريت :

– أجمل من هذه ؟ وأين يا سوزان ؟

سوزان :

– بالقرب من هنا ، ولها ثوب بنفسجي حريري جميل .. هي عند جانيت .

مرغريت :

– جانيت بنت صاحب الطاحون ! ومن أعطاها هذه الدمية ؟

سوزان :

– لا أعرف .. هي عندها منذ ثلاثة أيام .

وتبادلت الفتيات الثلاث نظرات الدهشة وقد دار بخاطرهن أن دمية جانيت ليست سوى دمية مرغريت .

كاميل :

– وهل لهذه الدمية قبقاب ؟

سوزان :

– لا ، بل في قدمها فردة حذاء من حرير أزرق ، وقدمها الأخرى حافية ، وعلى رأسها قبعة صغيرة من القش وفيها ريشة بيضاء .

مرغريت :

– هذه دميتي .. دميتي المسكينة التي تركتها منذ ثلاثة أيام تحت شجرة السنديان حينما بدأت العاصفة ولم أعثر عليها .

سوزان :

– قالت لي جانيت إنها أُهديت لها ، ولكنها كتمت سرها لئلا تُحسد عليها .

كاميل :

– هيا نخبر أمي بما سمعنا .

ودخلت كاميل ومادلين ومرغريت القاعة حيث كانت السيدة فلورفيل تكتب والسيدة رسبورغ تعزف على البيانو .

مادلين :

– ماما هل تسمحين لنا بالذهاب إلى الطاحون ؟ إن دمية مرغريت لدى جانيت ويجب أن نستعيدها .

السيدة رسبورغ :

– هذا جنون ! كيف يمكن لدمية مرغريت أن تكون في بيت جانيت ؟

مادلين :

– ولكن سوزان رأتها ، وجانيت طلبت منها أن تكتم سرها .

السيدة فلورفيل :

– لابد أن تكون دمية ثمنها خمسة وعشرون فرنكاً ، ثيابها من الورق أهديت إلى جانيت ، ووجدتها سوزان رائعة ، لأنها لم تر في حياتها دمية أجمل منها .

سوزان :

– نعم يا سيدتي إنها دمية جميلة .

السيدة رسبورغ :

– كيف هو فستانها ؟

سوزان :

– من الحرير البنفسجي .

السيدة رسبورغ :

– وقبعتها ؟

سوزان :

– من القش وفيها ريشة بيضاء .

السيدة رسبورغ :

– هل قالت لك من أعطاها هذه الدمية ؟

سوزان :

– لم تذكر لي اسمه .

السيدة رسبورغ :

– وهل عندها هذه الدمية منذ زمان طويل .

سوزان :

منذ ثلاثة أيام ، وقالت إنها جلبتها من المدينة ليلة العاصفة .

السيدة رسبورغ :

– شكراً يا سوزان ، خذي هذه الحلوى لتأكليها في الطريق .

وانصرفت سوزان فرحة ، فقالت السيدة رسبورغ :

أظن أن دمية مرغريت لدى جانيت فعلاً ، لنذهب جميعاً إلى هناك ، هيا لنسرع إلى الطاحون .

واستعدت البنات إلى الذهاب خلال ثلاث دقائق لأنهن كنّ متشوقات لاسترجاع الدمية ، وبعد نصف ساعة وصل

الجميع إلى الطاحون ، وطلبت السيدة رسبورغ منهنّ السكوت وقالت :

– لاتذكرن شيئاً عن الدمية يا بنات ، ابقين بجانبي ولا تتكلمن إلا إذا رأيتن الدمية .

ودخلن إلى الطاحون وكلهن رغبة في الحديث وسؤال جانيت عن الدمية ، ولكنهن كتمن هذه الرغبة كما طلبت منهن السيدة رسبورغ .

فتح صاحب الطاحون الباب وحياهن أجمل تحية وقدم لهن الكراسي ، وكانت البنات قلقات فوق كراسيهن فأشارت إليهن السيدة رسبورغ بالهدوء .

السيدة رسبورغ :

– كيف حالك يا سيد ليونار ؟

الطحان :

– حمداً لله وشكراً لسؤالك عني .

السيدة رسبورغ :

– وأين بنتك جانيت ؟

السيد ليونار :

– لا أدري ، ربما كانت في الطاحون .

السيدة رسبورغ :

– تريد البنات التعرف عليها ، نادها !

السيدة ليونار تنادي :

– جانيت .. جانيت .. أظنها لا تجرؤ على الدخول .

السيدة رسبورغ :

– ولماذا لا تجرؤ ؟

السيدة ليونار :

– هي خجولة لأنه لا يزورنا كثير من الناس .

السيدة رسبورغ :

– أريد أن أراها ، وإذا كانت عاقلة فسوف أجلب لها قميصاً من الحرير ومئزراً ليوم الأحد .

بحثت الأم عن جانيت وجاءت بها .

السيدة ليونار :

– تعالي أيتها الخجولة .

جانيت :

– لا أريد ، أنا خائفة .

السيدة ليونار :

– ولماذا تخافين ؟ لن تأكلك هذه السيدة .

وما إن تركت يد أمها حتى هربت وذهبت إلى غرفتها ، وغضبت أمها وخافت أن يضيع منها القميص والمئزر ، فنادت جانيت وهددتها :

– تعالي أيتها البلهاء وإلا أشبعتك ضرباً .

و تدخلت السيدة رسبورغ قائلة :

– لا تجبريها على المجيء ، سأذهب لأراها ، إني أعرف البيت .

دخلت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ الغرفة ، ووجدتا جانيت مختبئة وراء كرسي ، فجذبتها السيدة فلورفيل وأجلستها على الكرسي وقالت لها :

– لماذا تختبئين يا جانيت ؟ كنت من قبل تهرعين لاستقبالي حين آتي إلى الطاحون .

فأطرقت جانيت برأسها ولم تتكلم .

وسألتها السيدة فلورفيل :

– أين وجدت الدمية الجميلة منذ ثلاثة أيام ؟

جانيت :

– سوزان كذابة ، ليس عندي دمية ، ولم أتكلم مع أحد .

السيدة فلورفيل :

– وكيف عرفت أن سوزان هي التي تكلمت ؟

جانيت :

– لأنها تكرهني ، وقد روت لك الأكاذيب .

السيدة فلورفيل :

– ولماذا تتهمين سوزان وهي لم تذكر اسمك ؟

جانيت :

– لا تصدقي سوزان ، لم يعطني أحد دمية ، وليس عندي دمية .

السيدة فلورفيل :

– كلما تكلمت لاحظت أنك تكذبين ، هل تخافين أن آخذ منك الدمية التي وجدتها في الغابة يوم العاصفة ؟

جانيت :

– لست خائفة من شيء ، ولم أجد دمية تحت شجرة السنديان ، وليس عندي دمية مرغريت .

السيدة فلورفيل :

– كيف عرفت أنها دمية مرغريت ، وأنها كانت تحت السنديانة ؟

حين لاحظت جانيت أنه قد ضُيّق عليها الخناق بدأت تبكي وتحاول الابتعاد ، وتركتها السيدة فلورفيل وبدأت تفتش الغرفة ، ففتحت الخزانة والصندوق فلم تجد شيئاً .

ثم رأت أن جانيت واقفة قرب السرير ، فأطلت تحته ورأت الدمية ، فطلبت من أم جانيت أن تأتي بها ، فأطاعت الأم وهي ترتجف ، وأعطت الدمية للسيدة فلورفيل التي قالت لها :

– هل تعرفين أن لدى ابنتك هذه الدمية ؟

– لو كنت رأيتها لأمرتها أن تأخذها إلى القصر لأنها دمية الآنسة مرغريت .

ثم التفتت إلى ابنتها :

– أيتها المخلوقة الشريرة ، أيتها السارقة البشعة ، سأريك كيف تمدين يدك إلى أشياء الناس ، ولا تكتفين بهذا بل تكذبين أيضاً .

وتوسلت إليها جانيت ووعدتها بألا تعود إلى السرقة ، ولكن الأم صفعتها صفعة شديدة ، وخشيت السيدة فلورفيل أن تفقد الأم أعصابها فتؤذي ابنتها فحاولت تهدئتها .

أعطت السيدة فلورفيل الدمية لمرغريت وودعت السيدة ليونار وخرج الجميع ، ولكنهنّ سمعن صوت جانيت وهي تستغيث طالبة العفو من أمها ، فشعرن بالحزن لهذه الصغيرة وقضين النهار كله كئيبات .

الفصل التاسع

زيارة بيت صوفي

بعد حادثة الدمية تلقت كاميل من صوفي رسالة تدعوها فيها إلى زيارتها ، وكانت مملوءة بالأخطاء الإملائية ، ولكنها كانت فتاة طيبة فلم تطلع عليها مادلين أو مرغريت ، وذهبت إلى أمها .

كاميل :

– ماما .. كتبت صوفي إلي تقول إن السيدة فيشني تدعونا إلى العشاء لديها غداً .

السيدة فلورفيل :

– آه ، هذا مؤسف .. هل تهمك هذه الزيارة يا كاميل ؟

كاميل :

– نعم يا ماما ، لأن صوفي فتاة بائسة .

السيدة فلورفيل :

– هذا كرم منك يا كاميل لأنها سببت لك المتاعب مرتين .

كاميل :

– ولكنها اعتذرت بعدئذٍ .

السيدة فلورفيل :

– حسناً جداً ، جاوبيها بأننا سنذهب غداً .

كتبت كاميل إلى صوفي ما يلي :

(عزيزتي صوفي .

إن والدتي والسيدة رسبورغ ستأتيان للعشاء غداً وسنأتي معهما ، ويسعدنا القدوم إليكم ، ولن نرتدي ثيابنا الجديدة حتى نلهو على راحتنا ، إلى اللقاء مع تحياتي .

كاميل فلورفيل) .

وانشغلت الفتيات طول النهار بالتحضير لزيارة الغد ، أما مرغريت فأرادت أن ترتدي ثوباً من الموسلين الأبيض ،

وأما مادلين وكاميل فاختارتا ثوبين من الكتان البسيط ، وتدخلت السيدة رسبورغ وطلبت من مرغريت أن ترتدي ثوباً من الكتان ، وأرادت مرغريت أن تأخذ دميتها معها فقالتا لها :

– حذار يا مرغريت .. وتذكري السنديانة وجانيت .

مرغريت :

– ولكن لا يوجد غداً لا سنديانة ولا عاصفة ولا جانيت .

مادلين :

– ولكن قد تنسينها في مكان ما أو تسقط منك وتنكسر .

مرغريت :

– شيء مؤسف أن أترك دميتي في البيت دائماً ، فسوف تسأم ولا تخرج ولا يراها أحد .

ضحكت كاميل ومادلين ، وبعد لحظة تفكير شاركتهما مرغريت الضحك ، وعرفت أنه من الأسلم ترك الدمية في البيت .

الساعة الثانية من الغد كانت الفتيات يرتدين ملابسهن ، والساعة الثانية والنصف ركبن العربة ، وكانت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ معهن ، وكان الجو صافياً .

لم تدم الرحلة أكثر من نصف ساعة لأن قصر السيدة فيشني عل بعد خمسة كيلو مترات ، واستقبلتهن السيدة فيشني ووراءها صوفي التي تخاف الاقتراب لئلا تنالها صفعة .

قالت ترحب بهن :

– أهلاً وسهلاً يا سيدات .. أهلاً وسهلاً بكن يا أوانس ، فعلتن خيراً إذ بكرتن بالمجيء حتى نستطيع الحديث طويلاً على حين تلعب البنات في الحديقة ، ولي طلب

عندكن .. ذلك أني سأذهب في رحلة طويلة وأرجو أن تحتفظن بصوفي عندكن عدة أسابيع .

فوجئت السيدة فلورفيل ولم تجب ، ودخلت السيدات إلى القاعة وبقيت البنات في الردهة .

سألت مرغريت :

– أين ستسافر خالتك ؟

– لا أدري ، ولكنها لا تملّ من ضربي .. وسوف تتركني هنا وحدي وتذهب إلى إيطاليا .

قالت كاميل :

– وهل يؤسفك هذا ؟

– لا أدري .. خاصة وأني سأقيم عندكن ، ولن يصفعني أحد ، ولن أبقى وحيدة أياماً طويلة ، لا أعرف ماذا أفعل ، وكم جلست أبكي ساعات وساعات دون أن ينتبه إلي أحد أو يسمع صوتيّ إنسان .

وبكت صوفي ، فأحاطت بها البنات وهن يعانقنها ويخففن عنها حزنها ، وبعد عشر دقائق كنّ يجرين في الحديقة يلعبن ويتراكضن .

مضت ساعتان وهن يلعبن ، وكان الجو حاراً ، فرجعن إلى البيت .

قالت صوفي :

– كم أحس بالعطش !

مادلين :

– ولماذا لا تشربين ؟

صوفي :

– لأن خالتي تمنعني .

مرغريت :

– أتمنعك من شرب كأس ماء ؟

صوفي :

– نعم .. ولا يحق لي شرب الماء إلى وقت الغداء .

مرغريت :

– يا مسكينة ! ولكن هذا مخيف .

وسمعن صوت السيدة فيشني ينادي :

– صوفي .. صوفي .. تعالي إلى هنا حالاً ..

فأسرعت صوفي بالدخول إلى القاعة ، وظلت البنات الثلاث في الردهة خائفات وكلهن آذان صاغية .

السيدة فيشني :

– تعالي إلى هنا .. لماذا شربت عصير البرتقال ؟

صوفي :

– أي عصير يا ماما ! .. لم أشرب شيئاً .

السيدة فيشني :

– أيتها الكاذبة ، العصير الذي كان في غرفة النوم .

صوفي :

– أؤكد لك يا ماما أنني لم أدخل غرفتك ولم أشرب شيئاً .

السيدة فيشني :

– ألم تدخلي من النافذة ؟ ومَنْ ترك آثار أقدامه أمامها ؟

صوفي :

– أؤكد لك يا ماما ..

ولم تكد تنهي جملتها حتى هجمت عليها وأمسكت بأذنها وسحبتها إلى الغرفة المجاورة وانهالت عليها بالضرب حتى تعبت يداها ، فعادت إلى صديقاتها باكية محمرة الوجه منفوشة الشعر ، وأحست السيدتان بالإهانة لضرب الفتاة في حضورهما ، ولكنهما كتمتا غيظهما ولم تنطقا بحرف لئلا تبدل رأيها ، ولا تترك صوفي لديهما أثناء رحلتها إلى ايطاليا .

السيدة فيشني :

– إن ما حدث يدفعني إلى التخلص من صوفي ، ولكني أخاف ألا تستقبلاها في القصر فهي فتاة شريرة لا تطاق .

السيدة فلورفيل :

– لا أشك في ذلك ، وسأحاول أن أكون حذرة منها .

السيدة فيشني :

– ولكن ستدوم رحلتي شهرين أو ثلاثة .

السيدة فلورفيل :

– مهما طالت رحلتك فإنه يسعدني أن أقدم إليك هذه الخدمة .

السيدة فيشني :

– يا رب ! ما أطيب قلبك ، ولا أدري كيف أشكرك على هذا المعروف ، فهل أبدأ بالاستعداد للرحلة ؟

السيدة فلورفيل :

– طبعاً .. لقد وعدتك وسوف أفي بوعدي .

السيدة فيشني :

– سأسافر خلال ثلاثة أيام وستكون رحلة رائعة .

السيدة فلورفيل :

– سافري من الغد إذا شئت .

السيدة فيشني :

– ما أسعدني ! ويا لك من صديقة رائعة ، وسوف أرسل إليك صوفي بعد الغد .

السيدة فلورفيل :

– حسناً يا سيدتي ، سأكون في انتظارها .

السيدة فيشني :

– أنصحك يا سيدتي ألا تبالغي في تدليلها ، وأدّبيها بلا شفقة ، الضرب هو الطريقة الوحيدة لتربيتها .

كانت صوفي تبكي وهي واقفة مع صديقاتها ، وقد خُيّل إليهن أنها قد شربت العصير فعلاً ، ولكنها لا تريد الاعتراف بذلك خوفاً من العقاب .

قالت لها كاميل :

– يا صديقتي العزيزة ! لا بد أن العطش قد دفعك إلى شرب العصير ولكنك خفت من خالتك .

فأجابتها صوفي وهي تنتحب :

– ولكني لم أشرب العصير .. أقسم لك أني لم أشربه .

– ولكن ما حكاية آثار الأقدام التي تحدثت عنها خالتك ؟

– ليست آثار أقدامي ، ولن أكذب على أعزّ أصدقائي ، وأقسم لكنّ أني لم أشرب العصير .

حينئذٍ اهتمت الفتيات بصوفي وانصرفن إلى ترتيب هندامها :

فواحدة مشطت شعرها وأخرى غسلت وجهها ، ولكن ظلت عيناها منتفختين من البكاء ، وانطلقن إلى الحديقة ليقطفن بعض الأزهار ويتفرجن على ما ينبت فيها من خضار .

الفصل العاشر

زيارة المسكبة

كانت صوفي ما تزال حزينة وتمشي بصعوبة بسبب الضرب الذي انهالت عليها به خالتها ، فلم تذهب مع البنات لتقطف الأزهار بل دخلت إلى بيت البستانية الأم لوشيه .

الأم لوشيه :

– صباح الخير يا آنسة صوفي ، أراك في حالة سيئة ، هل أنت مريضة مثل بالمير ابنتي ، فقد التوت قدمها ولا تستطيع المشي .

صوفي :

– لا يا أم لوشيه ، لست مريضة .

الأم لوشيه :

– لقد ضربتك أمك إذن ، وهي حين تضرب لا تنظر بل تضرب ما وصلت إليه يدها : الرأس ، العنق ، الذراعين ، وكل شيء مباح لها . لم تجبها صوفي بل جعلت تبكي .

الأم لوشيه :

– لا تبكي يا بنيتي ! نحن نعلم أن حياتك ليست سعيدة ، وأقول لبالمير دائماً : (لو أني أضربك كما تضرب السيدة ابنتها لأطعتني دوماً) لو رأيتها كيف جاءت ، فستانها مملوء بالبقع ووجهها ويداها ملطخة بالدم لأنها سقطت من مكان مرتفع .

صوفي :

– كيف سقطت ؟

الأم لوشيه :

– لا أعرف كيف سقطت ، لم تذكر لي شيئاً ، ولا ريب أنها كانت تلعب في القصر لأنه لا يوجد رمل لدينا ، وعلى فستانها بقع حمراء كأنها العصير وليس لدينا عصير هنا .

صوفي :

– العصير ؟ أين وجدتِ العصير ؟

الأم لوشيه :

– لا أعرف ، لم تذكر لي شيئاً .

صوفي :

– هل أخذت العصير من غرفة خالتي ؟

الأم لوشيه :

– ربما فهي تذهب دوماً إلى القصر تحمل بعض الأعشاب الطبية للسيدة ، ولعلها شربت منه ولم تذكر لي شيئاً .

صوفي :

– لقد ضربتني خالتي لأنها ظنت أني شربت العصير ولم أشربه .

الأم لوشيه :

– هل من الممكن أن تكون بالمير هي التي شربته وعوقبت أنت بدلاً عنها ؟ بالمير تعالي إلى هنا !

بالمير :

– لا أستطيع يا ماما ، قدمي تؤلمني .

الأم لوشيه :

– سآتي إليك أنا والآنسة صوفي .

دخلتا غرفة بالمير التي كانت قدمها ممدودة ومنتفخة .

الأم لوشيه :

– قولي لي يا ملعونة كيف انتفخت قدمك هكذا ؟

فاحمر وجه بالمير ولم تجب .

الأم لوشيه :

– إذاً دخلت غرفة السيدة وهي غائبة عنها وشربت العصير ، وانسكب منه على فستانك ، وأردت أن تهربي من النافذة فالتوت قدمك ، ولم تجرئي على إخباري لأنك تعلمين ما ينتظرك .

بالمير (باكية) :

– نعم يا ماما هذا صحيح ، ولكني نلت جزائي لأن قدمي تؤلمني وذراعي أيضاً .

الأم لوشيه :

– وهل تعلمين أن الآنسة صوفي قد عوقبت بدلاً عنك ؟ وهل تظنين أن الأمر سيمر بسلام ؟

صوفي :

– أرجوك يا سيدتي ، ألا ترين أنها نالت جزاءها وهذه قدمها تؤلمها ، وأرجو أن تسامحيها كما سامحتها أنا .

بالمير :

– آه .. كم أنت طيبة يا صوفي ! وآسفة لأنك عوقبت بدلاً عني ، اغفري لي يغفر لك الله .

اقتربت صوفي من سرير بالمير وعانقتها ، ومسحت الأم لوشيه دمعة سقطت من عينيها وقالت تخاطب ابنتها :

– أرأيت كيف تكون طيبة القلب أيتها الشريرة ؟ لقد عوقبتْ كأنها حاربت جيشاً من القطط وذلك بسببك ، وهل حقدتْ عليك ؟ لا .. أبداً ، بل تطلب لك العفو ، ولو كنت مكانها لضربتك ضرباً مبرحاً حتى تتعلمي السلوك المهذب ، فاذكري هذا دائماً وسيري في طريق الصواب أيتها الحمقاء .

سالت من عيني بالمير دموع الندم والأسف ، وفرحت صوفي لأنها جنبتها الضرب الذي قاست منه هي .

كانت الأم لوشيه لا تعاقب ابنتها إلا إذا ارتكبت ذنباً عظيماً ، وتحس بتأنيب الضمير إذا فعلت هذا ، لذلك فرحت لأن صوفي قد سامحتها ، وشكرتها من صميم قلبها . أثناء ذلك دخلت كاميل ومادلين ومرغريت وحكت لهن الأم لوشيه ما حدث وكيف كانت صوفي كريمة مع بالمير ، فعانقنها وقالت كاميل :

– يا عزيزتي صوفي .. ألا تحسين بالفخر لأنك جنبت بالمير العقوبة التي تستحقها ؟ ولأنك تغلبت على الرغبة في الانتقام ؟

فأجابت صوفي :

– آه يا عزيزتي كاميل .. أحس بالسعادة لأني جنبتها العقوبة ، ولم تكن لدي رغبة في الانتقام ، فأنا أعلم كم هو مؤلم الضرب الذي سينهال عليها وكأنه سينهال علي .

ودع الجميع الأم لوشيه وابنتها ، وأسرعن إلى البيت لأنه حان وقت الغداء .

الفصل الحادي عشر

الرحيل

كانت صوفي خائفة من الدخول إلى القاعة ، ورجت صديقاها أن يسبقنها في الدخول لئلا تلمحها خالتها ، وقد حاولت الاختباء وراءهن ولكن السيدة فيشني قد رأتها وقالت لها :

– كيف تجرئين على العودة إلى القاعة ؟ وهل تتصورين أن أسمح لسارقة وكاذبة مثلك أن تأكل على طاولة واحدة معنا ؟

فأجابتها مادلين بجرأة :

– إن صوفي يا سيدتي بريئة ، ونحن نعرف الآن من شرب العصير .

– لا تصدقيها .. فهي تروي الأكاذيب ، وستكون عقوبتها الأكل وحدها في غرفتها .

قالت مرغريت :

– إن صوفي بريئة ، وبالمير هي التي شربت العصير وطلبت المعذرة من أمها التي أرادت أن تضربها .

مدام فيشني :

– هذه حكاية جميلة ، حكاية بالمير السارقة .

كاميل :

– لقد قالت مرغريت الحقيقة يا سيدتي ، لأن بالمير حين جلبت لك الأعشاب قفزت من النافذة بعد أن شربت العصير وسكبته على فستانها ، ثم التوتْ قدمها ، وقد سامحتها أمها بعد أن تدخلنا ورجوناها .. صوفي بريئة وطيبة القلب لأنها تحملت العقوبة وحدها .

السيدة رسبورغ :

– أرأيت يا سيدتي كيف عاقبت صوفي ظلماً ؟ ويجب تعويضها عن ذلك ، لقد ذكرتِ أنها تزعجك فهل تسمحين

لنا بأخذها معنا منذ الليلة ؟ وهكذا تحضِّرين نفسك للرحلة دون وجودها .

خجلت السيدة فيشني من خطئها الفادح تجاه صوفي ، ولم تستطع رفض طلب السيدة رسبورغ فتوجهت إلى صوفي قائلة :

– ستذهبين معهن هذا المساء وسأحضر لك حوائجك ، وأظنك مبتهجة لابتعادك عني ، ولأنك قاسية القلب ناكرة الجميل فلا أتوقع منك الشكر ، وأعفيك من الكتابة إليّ ، ولن أكلف نفسي عناء الكتابة إليك لتعرفي أخباري التي لا تهمك ، كما لا تعنيني أخبارك ، والآن أيتها السيدات أنتن مدعوات بعد رجوعي للاستماع إلى مذكراتي عن هذه الرحلة ، ولعلها تكون رحلة رائعة .

وانتقل الجميع إلى الطاولة لتناول العشاء ، وبعد أن تأكدت صوفي أنها ستذهب مع البنات هذا المساء ، وأن غضب خالتها قد انصرف عنها ، بدأت تأكل بشهية غير

عابئة بنظراتها ، وعاد الابتسام إلى مُحيّاها وكادت تنسى حادثة الصباح .

بعد تناول العشاء مضت البنات مع صوفي إلى غرفتها حيث دميتها ولعبها وأشياؤها ، وجمعت كل هذا وجعلته في صرة واحدة .

وأما السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فكانتا متشوقتين للعودة إلى القصر فطلبتا العربة .

مدام فيشني :

– ما يزال الوقت مبكراً للعودة ! لم تبلغ الساعة الثامنة .

السيدة فلورفيل :

– آسفة لمغادرتك مبكراً ، ولكني راغبة بالعودة قبل حلول الظلام .

السيدة فيشني :

– ولماذا تخافين من الظلام ؟ الطريق جميلة والقمر ساطع .

السيدة فلورفيل :

– إن مرغريت صغيرة لا تحتمل السهر وأظنها متعبة الآن .

مدام فيشني :

– هذه آخر ليلة نقضيها معاً ، فلتسهر مرغريت قليلاً .

السيدة رسبورغ :

– إني آسفة ولكن ابنتي تعودت على النوم في ساعة مبكرة .

جاءت الخادمة تعلن عن وصول العربة ، ونهضت البنات وسارعت صوفي إلى الباب وهي تحمل صرتها خوفاً من أن يسبقنها .

فودعتهن السيدة فيشني ثم نادت صوفي بصوت رهيب :

– تعالي ودّعيني أيتها الفتاة القاسية ، يظهر عليك الفرح لأني سأسافر ، فالفتيات المهذبات يبكين لفراق أمهن .

قالت مرغريت ببراءة :

– إني أبكي حين أغادر ماما ، وكذلك تفعل كاميل ومادلين لأن أمهاتنا لطيفات معنا ، وحين يكنّ قاسيات فلا أحد يبكي لفراقهن .

ارتجفت صوفي خوفاً ، وابتسمت مادلين وكاميل وعضت السيدتان شفاههما لئلا تضحكا ، وتطاير الشرر من عيني السيدة فيشني وتمنت لو تصفع مرغريت ولكنها لا تقدر على ذلك .

وتقدمت من صوفي وطبعت قبلة قاسية على جبينها وقالت :

– أراك تقولين أشياء رائعة لصديقاتكِ عني ، حذارِ ! سأعود ذات يوم .. الوداع .

حاولت صوفي أن تقبل يدها ولكن السيدة فيشني جذبت يدها بسرعة وهي غاضبة .

انتهزت الصغيرة هذه الفرصة وأسرعت بركوب العربة .

ودعت السيدتان مضيفتهما وتمنتا لها رحلة سعيدة ثم ركبتا العربة مع البنات ، وانطلقت العربة ، وحينما سمعن صوتاً ينادي : توقفوا .. توقفوا .. خافت صوفي أن تكون خالتها قد غيَّرت رأيها ، ولكن الخادم أنطوان هو الذي ينادي ، وحين وصل إلى العربة قال :

– آنسة صوفي .. لقد نسيت حوائجك ، وتقول لك السيدة إنك تستطيعين البقاء هذه الليلة إذا شئت .

قالت صوفي :

– سأرسل من يأخذها غداً .. لا حاجة لي بها .

وانطلقت العربة مرة ثانية ، وحين وصلت إلى القصر طلبت السيدة فلورفيل من صوفي أن تقاسم مرغريت

غرفتها ، وأحست صوفي بسعادة العصفور الذي فُتح له القفص فانطلق إلى فضاء الحرية .

ونامت والابتسامة تشرق على وجهها .

الفصل الثاني عشر

صوفي تأكل بشراهة

انقضى أسبوعان على وجود صوفي عند السيدة فلورفيل ، واستطاعت أن تتخلص من كل مساوئها ، واكتسبت عادات جديدة ، فهي تنهض صباحاً فتغسل وجهها وتمشط شعرها وتؤدي صلاتها ، ثم تتوجه إلى طعام الفطور مع البنات وهي سعيدة لا تكاد تصدق أنها تخلصت من سجنها لدى السيدة فيشني ، ولكنها لم تستطع التخلص من نهمها ، وذلك لأن خالتها كانت تحرمها الطعام والماء .

وهي الآن تأكل ما استطاعت خوفاً من أن تحرم من الوجبة التالية ، فكانت البنات يسخرن منها ، فهي حين تأكل بشراهة وتملأ معدتها لا تقدر على اللعب والجري معهن ، ولكن السيدة فلورفيل أدركت هذا ومنعتهن من السخرية بها ، وتركتها تأكل وتشرب قدر حاجتها ، وقد فهمت

صوفي تصرف السيدة فلورفيل فاحمرت خجلاً وبدأت تأكل بهدوء .

مادلين :

– ما زلت تشعرين بالخوف يا صوفي ، فأنت تهابين كل شيء وتختبئين خوفاً من العقوبة .

صوفي :

– لأن صوت خالتي يتردد في سمعي وأنسى أحياناً أني معكن ، وأخشى على هذه السعادة أن تزول عني .

قالت ذلك وأمسكت بيد السيدة فلورفيل وقبلتها ، فعانقتها السيدة وهي تمسح على رأسها بحنان .

صوفي :

– ما أطيب قلبك يا سيدتي ، إني أدعو الله في صلاتي أن يحفظك وأن أبقى معك .

السيدة فلورفيل :

– اسألي الله أن تكوني عاقلة ، مهذبة ، مطيعة ، وأن يعطف عليك قلب خالتك لتعيشي معها سعيدة .

سكتت صوفي وكأنها وجدت اتّباعَ هذه النصيحة أمراً صعبَ المنال .

وأما مرغريت فكانت لا تجلس في مكان وكأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولاحظت السيدة رسبورغ ذلك فسألتها :

– ماذا بك يا مرغريت ؟ لماذا تنظرين إلى السيدة فلورفيل هكذا ؟

مرغريت :

– لأني أجد نصيحتها في غير مكانها ، ولن أطلب من الله أن يرد السيدة فيشني إلينا بل أتمنى أن يأخذها إليه لئلا تعود إلى معاقبة صوفي .

السيدة رسبورغ :

– طلبت السيدة فلورفيل أن يحسّن الله أخلاق صوفي لتكون سعيدة في الحياة .

مرغريت :

– ولكن إذا رجعت السيدة فيشني فهذا من سوء حظ صوفي لأنها لا يمكن أن تكون طيبة معها .

السيدة فلورفيل :

– يا عزيزتي مرغريت ! إن الله قادر على كل شيء ، وقد يبدل قلب السيدة فيشني تجاه صوفي ، ولكن على صوفي أن تدعو بالخير لخالتها وتطلب الهداية من الله ، هذا واجب الصغار تجاه الكبار .

مرغريت :

– أتمنى لو أصبحت السيدة فيشني طيبة ، حسنة الأخلاق ، ولكن الأفضل أن تبقى هناك ولا تعود ، وتترك لنا صوفي .

السيدة فلورفيل :

– لاشك أنك طيبة القلب تتمنين الخير لصوفي ، ولكن الأفضل لها أن تعيش مع خالتها وتحسن رعايتها من أن تعيش بيننا ضيفة وليس علينا واجبات نحوها .

صوفي :

– صحيح ما تقوله السيدة فلورفيل فلو استطاعت خالتي أن تحبني كما تحبك أمك لفضلتُ العيش معها دائماً ، ولا أكون قلقة على مصيري بعد شهور .

مرغريت :

– ولكني خائفة من عودة السيدة فيشني .

صوفي :

– وأنا أيضاً .

بعد انتهاء الجميع من الطعام انصرفت السيدتان إلى عملهما على حين جلست البنات يلعبن ، ثم خرجن إلى الحديقة ، فطلبت مادلين وكاميل من مرغريت وصوفي أن

تبحثا عن شتلات الفريز لكي يزرعنها في الحديقة ، وسألت مرغريت : أين نجدها .

صوفي :

– رأيت غير بعيد من الغابة شجرات الفريز .

مرغريت :

– الأفضل أن نسأل البستاني .

صوفي :

– سنذهب لقطع هذه الشجيرات ، وإذا لم نستطع طلبنا مساعدته .

وأسرعت الفتاتان إلى حيث ذكرت صوفي ، وفرحتا إذ وجدتا الشجيرات عامرة بالثمار ، فبدأت صوفي تأكل بنهم ونسيت المهمة التي جاءت من أجلها ، أما مرغريت فذاقتها ثم توقفت .

قالت لها صوفي :

– كلي يا بلهاء .. استغلي الفرصة .

مرغريت :

– أي فرصة ؟ إني آكل منها كل يوم على المائدة .

صوفي :

– الفريز أطيب حين نقطفه بأيدينا ثم نأكل منه ما نشاء ولا يمنعنا أحد ، يا رب ما أشهاه !

كانت مرغريت تنظر إليها مندهشة ، فهي لم تر في حياتها فتاة تأكل بمثل هذه السرعة والشراهة . وبعد أن التهمت صوفي كمية كبيرة وامتلأ بطنها أطلقت صرخة استحسان ثم مسحت فمها ببعض الأوراق .

مرغريت :

– لماذا مسحت فمك بالأوراق ؟

صوفي :

– لئلا تبقى بقع الفريز على منديلي .

مرغريت :

– وإن يكن .. فالمناديل صنعت لمسح البقع .

صوفي :

– إذا علمن أني أكلت الفريز عاقبنني .

مرغريت :

– ومن قال هذا ؟ فنحن نأكل منه كل يوم ما نشاء !

صوفي :

– تأكلين ما تريدين ؟ ولا تمرضين من كثرة الأكل ؟

مرغريت :

– أبداً ، أنا لا آكل كثيراً لأن الشراهة صفة سيئة .

واحمر وجه صوفي خجلاً لأنها تعرف مدى شراهتها ، ولكنها أرادت أن تلفت انتباه مرغريت عن هذا الموضوع فاقترحت عليها انتزاع بعض الشتلات ، وإذا النداء يعلو :

– صوفي .. مرغريت .. أين أنتما ؟

وجرت إليهما كاميل ومادلين .

كاميل :

– ماذا تفعلان منذ ساعة ؟ لقد انقضى وقت استراحتنا ويجب أن ندرس الآن .

مادلين :

– لماذا تأخرتما ؟ . ما هي سوى بضع شتلات !

مرغريت :

– إنها صوفي ، لقد بدأت ..

صوفي :

– اسكتي ، لا تفسدي عليّ ، سوف يوبخونني .

مرغريت :

– لن يوبخك أحد .. ليست أمي مثل أمك .

كاميل :

– ماذا فعلت ؟ أخبريني !

مرغريت :

– منذ ساعة وصوفي تأكل الفريز ولم أر في حياتي أحداً يأكل بمثل هذه السرعة ، كنت أتسلى برؤيتها .

مادلين :

– ولماذا أكلت كل هذا الفريز ؟ سوف تمرضين .

صوفي :

– لا .. لن أمرض ، كنت جائعة .

كاميل :

– جائعة ؟ لقد أكلنا منذ قليل .

صوفي :

– جائعة للفريز وليس للّحم .

كاميل :

– جائعة للفريز ؟ ولكنك شاحبة ، لا بد أنك تحسين بالدوار .

صوفي :

– لا أحس بالدوار ، وأستطيع أن آكل سلة من الفريز .

مادلين :

- لا تغضبي ، نريد مصلحتك ، هيا لنرجع إلى البيت .

كانت صوفي تحس ببعض التوعك ولم تقل شيئاً ، وتبعت صديقاتها في طريقهن إلى البيت وهي ساكتة ، وظنت البنات أنها غاضبة فلم يوجهن إليها الحديث .

وحين وصلن قالت لهن السيدة روسبورغ :

- تأخرتن كثيراً .

مرغريت :

- ذهبنا إلى الغابة من أجل شتلات الفريز .

السيدة فلورفيل :

- هيا إلى الدراسة ، لتأخذ كل واحدة منكن كتبها ودفاترها . وسارعت مادلين وكاميل ومرغريت إلى الدراسة على حين تحركت صوفي بخطوات بطيئة ، ولاحظت السيدة فلورفيل ذلك فقالت لها :

- وجهك شاحب يا صوفي ، كأنك مريضة ، ماذا أصابك ؟

فاحمر وجهها قليلاً ، ونظرت إليها الفتيات معاً وقالت مرغريت :

- إنه الفريز .

السيدة روسبورغ :

- أي فريز ؟ ماذا تقصدين يا مرغريت ؟ .

- لا أدري .. إنني بخير ولكني أحس ببعض الغثيان .

حينئذٍ لم تعد صوفي قادرة على التظاهر ، وقد غثيت نفسها وأحست بالدوار ، ثم تقيأت كل ما أكلته على الأرض .

كانت السيدة فلورفيل شديدة الغضب ، ولكنها لم تعاقب صوفي بل أخذتها إلى غرفتها فبدلت لها ملابسها وغسلت وجهها وأطرافها ، ثم حضّرت لها كأساً ساخناً من الزهورات ، وأما صوفي فكانت شديدة الخجل ولم تجرؤ على النطق بكلمة ، وحين استعدت للنوم سألتها السيدة فلورفيل عن حالتها .

صوفي :

– أنا بخير ، شكراً لك يا سيدتي ، سامحيني لأنك لم تضربيني على هذا العمل .

السيدة فلورفيل :

– لقد كنت شديدة النهم يا صوفي ، وقد عاقبك الله على هذا بما يكفي ، وسوف تنامين الآن على حين نمضي نحن إلى النــزهة وزيارة الجيران .

أما الضرب فإني لا أضرب أحداً ، وإني متأكدة من أنك لن تعودي إلى هذه الشراهة ثانية ولن تملئي معدتك حتى تمرضي ، و لا أحرّم عليك أكل الفواكه ولكن أنصحك بالاعتدال لئلا تمرضي .

لبثت صوفي في سريرها لا تتحرك على حين مضى الجميع إلى النــزهة وزيارة الجيران ، وفكرت صوفي فيما قالت السيدة فلورفيل وعاهدت نفسها ألا تأكل أكثر مما تطيق معدتها .

الفصل الثالث عشر

العقوبة

بعد ساعة جاءت كاميل ومادلين ومرغريت لمعرفة أخبار صوفي ، وكن في ثيابهن الجديدة .

صوفي :

– لماذا أنتن لابسات ثياباً جديدة ؟

كاميل :

– سنذهب إلى السيدة ديفرتيل لجمع الكرز .

مادلين :

– وكم أسفنا لأنك لن ترافقينا ، كنا سنتسلى معاً .

مرغريت :

– السنة الماضية قطفنا الكرز وسُمح لنا بتسلق الأشجار وأكل ما شئنا ، ولكننا لم نؤذ أنفسنا ولم نأكل أكثر مما تحتمل معدتنا كما فعلت أنت بالفريز .

مادلين :

– لا تذكريها بالفريز يا مرغريت ، ألا ترين أنها تخجل من عملها ؟

صوفي :

– طبعاً إني خجولة وآسفة من تلك الشراهة التي سيطرت علي ، ولن أعود إلى هذا العمل أبداً .

مرغريت :

– قالت أمي إنني حين أصاب بعسر الهضم أشبه الخنـــزير البري .

ورأت مادلين وكاميل أن كلام مرغريت يؤذيها فطلبتا من مرغريت السكوت وعانقت البنات صوفي وانصرفن إلى زيارة السيدة ديفرتيل .

وسمعت صوفي صوت انطلاق العربة بهن ، وطلبت من المربية الإذن بالتمشي في الحديقة فأذنت لها ، وأحست بالسأم ساعات وساعات .

حين رجعت البنات من الزيارة كن يحملن معهنّ سلة كبيرة من الكرز .

من الغد قالت كاميل لصوفي :

– هذا المساء سنصنع مربى الكرز ، لقد علّمتنا السيدة ديفرتيل كيفية صنعه وسوف تشاركيننا في هذا العمل . وقالت لنا ماما إنه سيكون لنا ، لأنه مصنوع من الكرز الذي جلبناه .

وهتفت صوفي :

– عظيم .. رائع !

مادلين :

– يجب أن نعطي منه للمرأة الفقيرة جين فهي مريضة ولديها ستة أولاد .

صوفي :

– ولكنه كثير على هذه المرأة الفقيرة .

كاميل :

– ولماذا يكون كثيراً عليها ولا يكون كثيراً علينا ؟ هذا قول لا يليق بك يا صوفي .

صوفي :

– وهل معنى كلامك أن المرأة الفقيرة جين تعيش على أكل مربى الكرز ؟

كاميل :

– على العكس ، لأنها لا تتذوق مربى الكرز دوماً فعلينا أن نتصدق عليها به .

صوفي :

– لا أريد أن أتعب نفسي في صنع مربى الكرز ثم أعطيه للفقراء .

مرغريت :

– ومن طلب منك أن تصنعيه أيتها المغرورة ؟ وهل نحن بحاجة إلى مساعدتك ؟ ألا ترين أن كاميل قد طلبت منك المشاركة لكي تتسلي ؟

صوفي :

– أليس لي حصة في الكرز ؟ إذن أريد حصتي .

مرغريت :

– ليست لك حصة فيه لأنك لم تكوني معنا ، ولكن لا أريد أن أكون شرهة وبخيلة مثلك .. خذي .. خذي ..

وبدأت ترمي الكرز على صوفي التي اشتد غضبها فضربت كتف مرغريت بيدها ، وهجمت مرغريت عليها ، ولكن حالتْ مادلين وكاميل بينهما ، وعاتبت كاميل مرغريت على تسرعها فاعتذرت لصوفي ، ولكن صوفي لم تهدأ وأرادت أن تنتقم من مرغريت التي رمت الكرز عليها وصرخت بمادلين التي تمسك بها :

– اتركيني .. اتركيني .. اتركيني أعطيها من الصفعات بعدد حبات الكرز ، اتركيني وإلا ضربتك أنت أيضاً .

وارتفعت أصوات البنات حتى سمعتها السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فأسرعتا إليهن ، فدخلتا في اللحظة التي

تخلصت فيها صوفي من مادلين بضربة قدم على كاحلها ، وهجمت على مرغريت لتصفعها ولكن يدها تجمدت فوق رأسها حين لمحت السيدتين ، فاحمر وجهها خجلاً وخوفاً مما ينتظرها من عقاب .

أمسكت السيدة فلورفيل بيدها وجذبتها وخرجت بها إلى غرفتها وأجلستها وراء مكتبها ووضعت أمامها ورقاً وقلماً وقالت لها :

– ستقضين كل النهار في هذه الغرفة .

صوفي :

– لست أنا بل مرغريت .

السيدة فلورفيل :

– اسكتي .. ستكتبين عشر مرات صلاة الشكر ، وحين تهدئين سأعود لأراك تطلبين المغفرة من الله لأنك غضبت على صديقتك ، وستأكلين في هذه الغرفة وتنامين دون أن تري صديقاتك .

صوفي :

– ولكن قلت لك إن مرغريت ..

السيدة فلورفيل :

– اسكتي واكتبي .

خرجت السيدة فلورفيل من الغرفة وأغلقت بابها بالمفتاح ومضت إلى البنات تسألهن عن تصرف صوفي ، فحكين لها كيف أن مرغريت قذفت صوفي بالكرز وأن أمها قد عاقبتها بأن تظل في غرفتها و لا تنزل إلى القاعة هذا المساء .

السيدة فلورفيل :

– هذا مؤسف .. وحسناً فعلت السيدة رسبورغ إذ عاقبت مرغريت .

كاميل :

– ولكن مرغريت محقة ، إذ أرادت أن تتصدق بالمربى على الفقيرة وصوفي متكبرة شريرة .

السيدة فلورفيل :

– هذا صحيح ، ولكن من واجب مرغويت أن تسيطر على أعصابها وأن تشرح لها واجبنا نحو الفقراء والمعوزين لا أن تضربها بالكرز .

كاميل :

– ولكن صوفي لم تكن تصغي إليها .

السيدة فلورفيل :

– صوفي شديدة الحيوية سيئة التربية وليست معتادة على الإحسان إلى الفقراء ، ولكنها طيبة القلب ويمكنها أن تفعل مثلكن وتصبح فتاة مثالية ، وهي الآن غاضبة ولن يرضى الله عنها .

مادلين :

– اسمحي لي يا أمي برؤيتها ، أظنها تبكي الآن ولا ريب أنها تابت عن عملها من كل قلبها .

السيدة فلورفيل :

– أريد أن أتركها حتى المساء ، ولا تكلميها الآن لأنها ما تزال غاضبة ، وسوف أراها بعد ساعة .

وذهبت السيدة فلورفيل ومادلين وكاميل إلى السيدة رسبورغ ، وانصرفت الفتاتان إلى اللعب بدميتيهما وقد تأكدتا أن الحياة دون صديقات كئيبة مملة .

أثناء ذلك كانت صوفي تبكي في الغرفة لا ندماً بل قهراً وغضباً ، وتتفحص الغرفة لعلها تجد وسيلة للهرب ، ووجدت النافذة عالية لا تستطيع فتحها وإنْ وضعت كرسياً أمامها ، وأما الباب الذي صدمته عدة مرات فكان صامداً لا يمكن كسره ، فلم تجد شيئاً تنفس به عن غضبها سوى القلم والأوراق ، فدهسته بقدميها ومزقت الأوراق بيديها ، وأمسكت بصفحات الكتاب فنزعت أوراقه ورمتها في الهواء ، وأرادت أن تكسر الكرسي فلم تسعفها قوتها فرمته وهي تلهث والعرق يتصبب منها ، وحين هدأ غضبها وفكرت فيما فعلته شعرت بالجزع والندم لذلك :

– ماذا ستقول السيدة فلورفيل .. وأي عقوبة ستحلّ بي ؟ لا ريب أنها ستضربني .. فلتضربني ، لقد تعودت على الضرب ولن أفكر بهذا الأمر .. سأنام الآن .

وأغلقت صوفي عينيها ولكن لم يأتها النوم وظلت قلقة ، فكانت تقفز لأدنى صوت تسمعه ، وتظن أن الباب سيفتح بعد قليل .

انقضت ساعة ، فسمعت المفتاح يدور في القفل والباب يفتح ، ودخلت السيدة فلورفيل ، فنظرت إلى حالة الغرفة وقالت هادئة :

– اجمعي هذه الأوراق كلها !

فلم تتحرك صوفي .

– قلت لك اجمعي هذه الأوراق !

ولم تتحرك صوفي ، فأعادت السيدة فلورفيل قولها بهدوء :

– إذا لم تجمعيها فسوف تسيئين إلى نفسك وتتضاعف عقوبتك .

ونادت بأعلى صوتها :

– إليزا .. تعالي لحظة أرجوك .

ودخلت إليزا ووقفت مذعورة أمام هذه الفوضى ، وتابعت السيدة فلورفيل :

– اجمعي هذه الأوراق الممزقة وهاتي نسخة أخرى من صلاة الشكر وقلماً وورقة .

وحينما كانت إليزا تنظف الغرفة جلست السيدة فلورفيل تتأمل صوفي المرتجفة أمام هدوئها . وكم تمنت لو أنها لم تمزق الكتاب والأوراق ولم تكسر القلم . وحين رجعت إليزا بما طلبته السيدة فلورفيل منها ، نهضت السيدة وأجلست صوفي مكانها وقالت لها :

– ستكتبين الآن صلاة الشكر عشر مرات كما طلبت منك ، وسيكون عشاؤك الحساء والخبز والماء فقط ،

وستدفعين ثمن ما مزقت وكسرت من مصروفك الشخصي ، ولن تري صديقاتك ، ولكن ستتنــزهين برفقة إليزا الممنوع عليها محادثتك ، ولن تخرجي من سجنك إلا حين يدخل الندم ، الندم الصادق إلى قلبك ، وتسألين الله المغفرة عن همك وأنانيتك وكرهك للإحسان ، واسألي الله أيضاً ألا يقبض روحك قبل أن تتوبي .

وتوجهت السيدة فلورفيل إلى الباب ، حينئذٍ اندفعت إليها صوفي وتمسكت بأذيال ثوبها وهي تقول :

– اغفري لي .. اغفري لي ..

وتأملتها السيدة فلورفيل برهة ثم أمسكت يديها بحنان :

– يا صغيرتي ، إن الندم يمحو الذنوب ، وقد أذنبت أمام الله أولاً وأمامي ثانياً ، ولا شكّ أن ندمك صادق ولكنه لا يلغي العقوبة ، ولن تلعبي مع صديقاتك قبل مساء الغد ، وستفعلين كل ما طلبته منك .

صوفي :

– يا سيدتي .. إني أستأهل العقوبة ولا أطلب منك إلغاءها .. ولكني أطلب منك الصفح والمغفرة ، هذا كل ما أطمع فيه ، فهل تصفحين عني ؟ .

السيدة فلورفيل :

– طبعاً أصفح عنك ولا أحقد عليك ، واطلبي المغفرة من الله كما طلبتها مني ، وسوف أبعث إليك عشاءك وستكتبين ما هو مطلوب منك ، وسوف تنهين قراءة الكتاب الذي جئتك به .

عانقت السيدة فلورفيل صوفي التي قبلت يدها ، فانتزعت السيدة فلورفيل نفسها منها وخرجت دون أن تغلق الباب بالمفتاح ، وضاعفت هذه الثقة من ندم صوفي وأسفها لأنها كانت شريرة سريعة الغضب ، وجلست تعاتب نفسها :

- كيف جرؤت على إغضاب السيدة فلورفيل التي دافعت عني وأحاطتني برعايتها وأحسنت إلي ، وحين ندمتُ

على خطئي سارعتْ إلى نسيانه وعادت إليها رقتها وطيبة قلبها ، فكيف ظنّي بالله العلي القدير الذي يغفر الذنوب ؟

ثم بدأت تصلي لله بصدق وإخلاص وتطلب منه العفو والمغفرة لِما قدّمت يداها ، ووعدت بألا تعود إلى عمل الشر أو التفكير فيه .

وما كادت تنهي صلاتها حتى دخلت إليزا وجلبت لها صحن حساء وقطعة خبز كبيرة وإبريق ماء .

إليزا :

– هذا عشاء المساجين ، ولكنك حين تكونين جائعة ستجدينه لذيذاً .

صوفي :

– آه يا إليزا ، إني لا أستأهله .. فهو كثير على فتاة مثلي .

إليزا :

– آه .. لقد بَدّلْنا النغمة بسرعة ، ولو رأيت نفسك منذ قليل لقلت .. لقلت .. إنك عفريتة .

صوفي :

– هذا ما كنت عليه حقاً ، إني نادمة ولن أعود إلى عمل الشر .

وبدأت تأكل بسرعة وهي تتلذذ بالطعام ، فكانت إليزا تراقبها ، ثم قالت :

– حين تكونين طيبة تنعمين بصحبة أمثالك من البنات وتذهبين معهن إلى النـــزهة ولا تعاقَبين إلا إذا ارتكبتِ خطأ كبيراً .. وقد رأيت كيف كانت السيدة فلورفيل حانية عليك ، ولا أفهم سبب غضبك .

صوفي :

– لقد تعودت على الغضب حين أعاقَب ، فكانت خالتي تزيد من حنقي وغضبي ولا تخفف منه ، لذلك لا تؤثر فيّ

العقوبة ، وأما السيدة فلورفيل فهي تدفعني إلى تحسين أخلاقي والتغلب على غضبي .

إليزا :

– ذلك لأن السيدة فيشني تعاقبك وهي غاضبة أو تتلذذ بتعذيبك ، أما السيدة فلورفيل فهي تعاقبك لأن واجبها نحوك يدفعها إلى معاقبتك ، فهذا يفيدك وإن أنكرتِه .

صوفي :

– نعم .. صدقت ، هذا يفيدني .

بعد أن أنهت صوفي عشاءها انصرفت إلى كتابة عقوبتها بخط حسن ، ثم قرأت صلاتها وتفكرت فيما جلبته على نفسها بسبب عنادها ، وجاءت إليزا تدعوها إلى النوم فمضت إلى غرفتها فإذا مرغريت نائمة ، فقبلت خدها بحنان كأنها تطلب الصفح منها ، ثم نامت مرتاحة الضمير .

الفصل الرابع عشر

الإضاءة

مرت سنة على إقامة صوفي لدى السيدة فلورفيل ولم تصلها أخبار خالتها زوجة أبيها ، ولم تكن قلقة عليها ، بل إن هذا الصمت قد هدّأ من شراسة طبعها .

واعتبرت نسيان خالتها لها غايةَ مُناها ، فقد كانت تعيش سعيدة مع صديقاتها ، وكلما قضت يوماً مع هؤلاء الفتيات المثاليات تحسنت أخلاقها وتطورت مَلَكاتُها التي كاد أن يدمرها عنف خالتها ، وكانت السيدة فلورفيل والسيدة روسبورغ تعطفان على البنات ولكن دون أن تفسدهن بكثرة الدلال ، ولا يمنعهما حبهما لهنّ من معاقبتهن إذا أخطأن ، فهذا يجعلهن يقدرن قيمة العمل وضرورة الطاعة ، وقد استفادت صوفي كثيراً من اتباع هذا المثال الذي تراه أمامها .

ذات يوم دخلت السيدة فلورفيل إلى غرفة صوفي وبيدها رسالة وقالت لها : يا عزيزتي .. هذه رسالة من خالتك .

نهضت صوفي مذعورة ثم سقطت على مقعدها ، وقد أخفت وجهها بيديها ولا تكاد تمسك دموعها .

ولاحظت السيدة فلورفيل فزعها فقالت : يا حبيبتي الصغيرة .. أنت خائفة أن تعود خالتك وتستردك منّا ، لا تخافي ! لقد كتبت إلي تقول إنها في نابولي حيث تزوجت من أحد النبلاء ، ومن شروط الزواج ألا تقيمي معها . وقد خيّرتني بين أمرين : إما أن أرسلك إلى مدرسة داخلية أو أحتفظ بك لتكبري مع مادلين وكاميل وتكوني ابنتي الثالثة ، فماذا تفضلين أنت ؟

فارتمت عليها صوفي وهي تقبلها وتقول : يا سيدتي العزيزة ، احتفظي بي لديك ، وأكملي معروفك واسمحي لي أن أحبك حب البنت لأمها ، وأن أحترمك وأطيعك كما

تفعل البنت المؤدبة ، وسأسعى أن أكون جديرة بحنانك وعطف صديقاتي علي .

السيدة فلورفيل : اتفقنا إذن ، ستبقين معي .. وستكونين مثل ابنتيّ كاميل ومادلين ومثل مرغريت .. وأنا واثقة أنك تفضلين البقاء معنا كما لو أنك في أحسن مدرسة داخلية في باريس .

صوفي : أشكر لك حسن ظنك بي وعطفك علي ، ولكني أخشى أن أكون عالة عليك .

السيدة فلورفيل : لا تخافي .. لقد ترك لك والدك ثروة طائلة تكفي لمصروف عشرة من أمثالك .

وسارعت صوفي إلى صديقاتها تزفُّ إليهن هذه الأنباء السارة ، فكدن يطرن من الفرحة ، وتجمعن في حلقة يرقصن ويغنين حتى هُرعت إليزا على أصواتهن .

إليزا : ماذا جرى ؟ ما هذا الرقص وهذه الأفراح ؟ وما سبب كل هذا الصراخ ؟ .

مرغريت : آه ما أسعدنا .. ما أسعدنا يا إليزا ! تعالي ارقصي وغني معنا .

إليزا : ولماذا تريدين مني أن أرقص كالقرد ؟ ماذا جرى ؟

مرغريت :

– ستبقى صوفي معنا .. دائماً .. دائماً .. لقد تزوجت السيدة فيشني ولا تريد أن تكون صوفي معها .. ما أسعدنا ! .

وانضمت إليزا إليهن وتعالت أصواتهن حتى جاء كل من في المنـــزل يتساءل عن سبب هذه الضوضاء والرقص ؟ وكلما علم أحدهم بهذا النبأ ظهرت الفرحة على وجهه لأن صوفي كانت محببة إلى الجميع ..

وحين تعبت البنات من الرقص جلسن يتحادثن ، وقالت إليزا : للاحتفال بالأعياد الكبرى تلزمنا إضاءة القصر احتفاء ببقاء صوفي معنا .

كاميل : ويلزم لهذا فوانيس ، أليس كذلك ؟

إليزا : نصنع هذه الفوانيس .

مادلين : وكيف نصنعها ؟ ومن أي شيء ؟

إليزا : من قشور الجوز ومن الشمع الأصفر والشموع .

مرغريت : أحسنت يا إليزا .. تعالي أُقبلك ..

واندفعت مرغريت إلى إليزا ، لكنها هربت أمامها فلحقت بها البنات وأردن الإمساك بها ، إلا أنها استطاعت الإفلات منهن وهي تضحك ودخلت غرفتها وأغلقت بابها ولم يستطعن فتحه فقد كان قوياً .

مرغريت : إليزا .. إليزا .. افتحي لنا أرجوك .

كاميل : إليزا .. الطيبة ، لن نقبّلك سوى مائة وخمسين قبلة .

مادلين : إليزا الرائعة ، افتحي لأقول لك شيئاً .

صوفي : إليزا .. افتحي سنرقص معك فقط .

إليزا : لن أفتح .. عندي مفاجأة كبرى بانتظاركن .

وسألت صوفي : ماذا تفعل ؟ إني متشوقة لمعرفة ذلك .

مرغريت : سأراقبها من ثقب القفل .. ولكني لا أرى شيئاً ، إنها واقفة وظهرها لنا .. ولا أرى ما تفعل .

كاميل : عندي فكرة .. لماذا لا ندور حول البيت وننظر من النافذة فهي ليست عالية . ولأنها لا تتوقع أن نراقبها من النافذة ، فلن يكون لديها الوقت للاختباء .. وسنرى ما تفعله .

صوفي : فكرة جيدة ولكن بدون ضجة .. هيا على رؤوس أصابعكن .

وفعلن ما طلبت صوفي منهن ، فدرن حول البيت على رؤوس أصابعهن حتى وصلن إلى نافذة إليزا ، كانت مرتفعة بالنسبة إلى قامة البنات ، فجلبن مقعداً من الحديقة وصعدن فوقه .. وأطلقت إليزا صرخة عالية ولم تستطع إخفاء ما تفعله ، وهتفت البنات : إنها تحضّر الفوانيس من أجل الإضاءة هذا المساء .

فصاحت بهن : لقد رأيتن ما أفعله ، فشاركنني إذاً في صنع الفوانيس .

دُرْنَ حول البيت مرة ثانية وهن يضحكن ، ودخلن غرفة إليزا فوجدنها قد كسرت مئات من الجوزات وملأتها بالشمع أو الدهن . فبدأن يساعدنها في تحضير الفوانيس .

كان الإعداد لهذا الاحتفال طويلاً ، فقد ذوبت البنات الشمع أو الشحم على نار هادئة ثم سكبنه داخل قشور الجوز ، وقبل أن يبرد وضعن فيه فتيلاً .

وبعد أن حضّرن مئات منه وضعنها في سلتين كبيرتين .

قالت إليزا : لقد انتهى عملنا الآن ، يجب أن نضع الفوانيس فوق الأسطحة والأشجار والطاولات وعتبات البيوت ، وسوف نضيئها ليلاً .

كانت السيدة فلورفيل و السيدة رسبورغ تعملان في القاعة حينما دخلت البنات ومعهن سلتان كبيرتان .

السيدة رسبورغ : ما بداخل هاتين السلتين ؟

كاميل : فوانيس للاحتفال هذا المساء بزواج السيدة فيشني وتركها صوفي لدينا .

السيدة فلورفيل : ما أجمل هذه الفوانيس ! من أين جئتن بها ؟

مادلين : لقد صنعناها يا ماما ، كانت فكرة إليزا ، وتعاونا على إنجازها .

وجدت السيدتان أنها فكرة جيدة وساعدن البنات على توزيع الفوانيس في أنحاء القصر ، وحين جاء وقت العشاء أخذت إليزا الفتيات لتغسل لهن أطرافهن وتعتني بهن ، وبدا العشاء لهن طويلاً فقد كن متشوقات لرؤية الإضاءة .

وبعد العشاء كان عليهن انتظار حلول الظلام ، فقمن بنزهة مع أمهن حتى أظلم المكان ورجع الجميع إلى القصر ، وبدأن بإشعال الفوانيس ، ثم جلسن في القاعة يتأملن بإعجاب ما صنعت أيديهن ، واقترحت مرغريت أن يلعبن لعبة (الغميضة) على أن يشارك فيها الكبار والصغار ،

ويكون مجالها مفتوحاً في الغرف والممرات والطابق العلوي أيضاً .

وبدأ الجميع هذه اللعبة المسلية ، واختبأت السيدة فلورفيل كما اختبأت السيدة رسبورغ وبحثت عنهما الفتيات حتى وجدتهما ، وكانت سهرة رائعة قامت خلالها السيدتان بتحضير قالب من الحلوى وعصير البرتقال ، وأكل الجميع وشربوا . وحملت إليزا قطعة كبيرة من الحلوى معها ، ثم تهيأن للنوم وهن يشعرن بسعادة لا توصف .

الفصل الخامس عشر

الجدري

ذات يوم شكت كاميل من الصداع والغثيان ، وجزعت السيدة فلورفيل لشحوب وجهها وتبدل ملامحها فأرقدها في السرير ، واستمرت الحمى والصداع والقيء ، واستدعي الطبيب فأعطاها بعض الأدوية الخافضة للحرارة ووصف لها حميةً غذائية .

من الغد ، لاحظت إليزا بقعاً حمراء على وجه كاميل وذراعيها وجسمها كله ، وفي المساء أصبحت كل بقعة حبة ، ثم زال عنها الصداع والغثيان .

أعلن الطبيب أنها مصابة بالجدري ، وفي الحال أبعدت عنها الفتيات الثلاث وبقيت السيدة فلورفيل وإليزا بجانبها ، وقد أرادت السيدة فلورفيل أن تبعد إليزا لكنها رفضت .

إليزا : لن أبتعد أبداً عن عزيزتي كاميل ، ولو أصبت بمثل مرضها ، لن أتخلى عن واجبي .

كاميل : أعرف كم تحبينني وأنا أحبك أيضاً ، ولكني لا أريد أن أراك مريضة .

إليزا : حسناً .. حسناً .. لا تتكلمي كثيراً وإلا رجع إليك الصداع .

ابتسمت كاميل وشكرت إليزا بنظراتها ، وكانت عيناها نصف مغمضتَيْن ووجهها مغطى بالبثور ، وبعد أيام جفت هذه البثور ، ونهضت كاميل من سريرها وهي ضعيفة القوى .

أثناء مرضها كانت مادلين ومرغريت وصوفي يسألن عنها ، وقد منع عليهن الاقتراب منها ، فكانت إليزا تأتيهن بالأخبار عشرين مرة في اليوم .

كانت البنات يرسلن إلى كاميل قصاصات من الورق رسمت عليها الصور أو كتبت عليها الأشعار ، أو يبعثن إليها

بعض السلال الصغيرة للترويح عنها ، ولم تكن تستطيع أن ترد على هداياهن أو تفعل شيئاً أو تقرأ لئلا تتعب عينيها .

بعد ثمانية أيام من مغادرتها الفراش بدأت القشور تسقط عن بثورها ، ولاحظت كاميل أن إليزا مصفرة الوجه .

كاميل : هل أنت مريضة يا إليزا ؟ أنت شاحبة ويدك ساخنة ، هل تحسين بالحمى ؟

إليزا : الصداع لا يفارقني منذ الأمس ، ولم أنم الليل ولذلك شحب وجهي .

كاميل : عليك أن تنامي ، أرجوك .. أنت لا تقوين على الوقوف .

وانهارت إليزا على الكرسي ، فأسرعت كاميل واستدعت أمها ، وحين رأت حالة إليزا سخّنت لها بعض الحليب ، واضطرتها إلى النوم على الرغم من اعتراضها ، واستدعي الطبيب مرة ثانية ، فوجد حرارتها مرتفعة وهي تهذي فأعلن أنها بداية الجدري ، ووصف لها عدداً من الأدوية

لم تخفف آلامها . وفي اليوم التالي ألصق بعض العلق على كاحليها لكي يمص بعض الدم وتظهر البثور ، ولم تفارقها كاميل فكانت تناولها دواءها وتضع الكمادات الباردة على جبينها وتسقيها إذا عطشت ، ولم تطع أوامر أمها التي منعتها من النوم في غرفة إليزا ، فكانت تقول وهي باكية :

– لقد مرضتُ وهي تعالجني ، فانتقلت إليها العدوى ، فمن العدل أن أعالجها أيضاً .

ولم تشعر إليزا بمن حولها ولم تفتح عينيها ، وكان العلق يمتص الدم من كاحليها ، ثم نزع عنهما ولُفّ كاحلاها بالقطن ، ومن الغد كان جسدها كله مغطى بالبثور ، واستراحت قليلاً ففتحت عينيها وتأملت كاميل التي كانت قلقة عليها وابتسمت لها ، فأمسكت كاميل بيدها الملتهبة ورفعتها إلى شفتيها ، وقالت لها : يا عزيزتي إليزا ، لا تتكلمي ، إني وأمي بجانبك .

ولم تكن إليزا قادرة على الكلام بعد ، ولكنها أحست بالرعاية التي أحاطتها بها كاميل والسيدة فلورفيل ، فكانت تحاول التعبير عن عرفانها بكل وسيلة تقدر عليها .

ظلت إليزا عدة أيام في مرحلة الخطر ، ثم أعلن الطبيب أنها قد تجاوزت هذه المرحلة وبدأت البثور تجف ، وكانت كثيرة بحيث غطت وجهها كله ، وبعد أن تحسنت وتناولت شيئاً من الطعام استأذنت كاميل من أمها لترى أختها وصديقتيها .

قالت لها أمها : تستطيعين التنـــزه مع أختك وصديقتيك ، ولكن لا تقتربي منهن ولا تلمسيهن .

غادرت كاميل الغرفة وجرت إلى الهواء الطلق ، وسمعت أصوات البنات وهن يتحدثن في الحديقة فذهبت إليهن وهي تقول : مادلين ، مرغريت ، صوفي ! أريد أن أراكن وأتحدث إليكن ، ولكن إياكن أن تلمسنني .

فتسابقت البنات لندائها وهن يصرخن فرحات .

وهتفت كاميل : توقفن ، لقد منعتني أمي من لمسكن ، إني ما أزال ناقلة لعدوى الجدري .

مادلين : أريد أن أعانقك يا عزيزتي .

مرغريت : سوف أعانقك برغم كل شيء .

وهجمت على كاميل التي تراجعت إلى الخلف وقالت : لو عرفتِ آلام الجدري لما استهنت به .

صوفي : قولي لنا إن كنت قد قاسيت أو أصابك الخوف .

كاميل : حين كنت مريضة كان الصداع أشد شيء علي ، ولكن إليزا قاست مدة أطول مني .

مادلين : وكيف حالها اليوم ؟ ومتى نستطيع رؤيتها ؟

كاميل : حالتها جيدة .. لقد أكلت البارحة ، وهي تتمشى في غرفتها ويمكننا رؤيتها غداً من وراء النافذة .

مادلين : ما أسعدنا ! ومتى يمكننا معانقتك كما نعانق ماما ؟

كاميل : تستطيعين معانقة ماما لأنها ليست مريضة ، وهي تبدل ثيابها التي تلوثت بالجراثيم .

واستمرت البنات يحكين تفاصيل حياتهن الرتيبة البسيطة ، ثم جاءت السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فسارعن إلى معانقتهما .

منذ ثلاثة أسابيع لم تر السيدة فلورفيل البنات إلا من بعيد عبر النافذة ، وصباحاً أعلن الطبيب أنه لا خطر من انتقال العدوى سواء بواسطة السيدة فلورفيل أو كاميل ، ولكن يجب على إليزا أن تبقى في عزلة حتى تجف بثورها .

من الغد كانت البنات متجمعات أمام النافذة بانتظار إطلالة إليزا ، فلبسن أبهى ثيابهن ووضعن الكراسي والمقاعد وجلسن وكأنهن في حفلة موسيقية ، وفجأة فتحت النافذة وأطلت إليزا ، وغلبتهن الدموع وهن يهتفن : إليزا .. إليزا .. !

مرغريت : صباح الخير يا عزيزتي !

صوفي : صباح الخير يا إليزا !

إليزا : صباح الخير يا حبيباتي . ! أرأيتن كيف أصبحت جميلة بهذا القناع على وجهي .

كاميل : ستظلين دوماً مربيتي إليزا الجميلة ، وهل أنسى أنك أصبت بالعدوى مني .

إليزا : وقد خدمتني أنت أيضاً ، فأنت فتاة رائعة ، ولن أنسى ما حييت ما أحطتني به من عناية وما غمرتني من حنان أنت والسيدة فلورفيل .

وسكتت لتمسح الدموع عن خديها ، وانتقلت عدوى البكاء إلى البنات وارتفع نحيبهن .، وجاءت السيدتان فرأتا هذه الجوقة الباكية فسألتا مذعورتين : ماذا حدث ؟

– لا شيء يا ماما .. إنها إليزا في النافذة .

– لا تتعبوها بالبكاء ، وحين تستريح وتبرأ من مرضها سنحتفل بهذه المناسبة وبما يليق بها .

وهتفت البنات فرحات : الاحتفال .. الاحتفال .. شكراً يا ماما .. احتفال بشفاء إليزا .

وتعبت إليزا من البكاء ، فرجعت إلى سريرها ومضت البنات مع السيدتين يناقشن تفاصيل الاحتفال بشفاء إليزا .

وسنرى فيما يلي ماذا تقرر حول هذا الموضوع .

الفصل السادس عشر

الاحتفال

منذ عدة أيام والحركة دائبة في القصر ، وقد أحيطت شجرة البرتقال المطلة على القاعة برعاية خاصة ، كما أنهن قطفن بعض الأزهار وأنضجن بعض الطعام والحلويات ، وكانت البنات ينظرن إلى إليزا نظرات غريبة ، ويحرصن على ألا تقترب من شجرة البرتقال ، ولا يفارقنها . وقد ظنت إليزا أن هناك مفاجأة تحضَّر لها ، ولكنها تجاهلتها لئلا تفسد على البنات فرحتهن .

وقدم يوم الخميس ، الساعة الثالثة بعد الظهر . فدبت في البيت حركة غير عادية ، وكانت إليزا تستعد لارتداء ملابسها حينما دخلت البنات يحملن سلة كبيرة مغطاة ، وهن في أبهى ملابسهن .

كاميل : سوف نقوم بإلباسك ثيابك .. وقد جلبنا معنا كل ما يلزم .

إليزا : عندي كل ما يلزمني .. شكراً يا بنات .

مادلين : ولكنك لن تري ما جلبنا معنا .. انظري .. انظري .. !

قالت مادلين هذا وكشفت غطاء الموسلين عن السلة ، فأبصرت إليزا فستاناً من التافتة البني اللون وقبته وكُمّاه من الدانتيل وقبعة من الدانتيل المزينة بشرائط بيضاء .

إليزا : هذا كله لي ؟ هذا كثير .. ولا يمكنني أن أرتدي مثل هذه الثياب الفاخرة ، فسوف أشبه السيدة فيشني .

مرغريت : لم يعد للسيدة فيشني وجود ، لقد رحلت .

مادلين : لا همنا إن أقامت أو رحلت ولننصرف إلى إليزا .

وقبل أن تستطيع إليزا منع البنات هجمن عليها وخلعن عنها مئزرها وبقيةَ ملابسها بأقل من دقيقة .

كاميل : اخفضي رأسك حتى أدخل القَبَّة فيه .

مادلين : مدي ذراعك لألبسك الفستان .

صوفي : وأين القبعة ؟ أعطوها القبعة .

بعد أن لبست الثوب ووضعت القبعة ذات الأشرطة أخذتها البنات إلى غرفة السيدة فلورفيل لتتأمل نفسها في المرآة الكبيرة ، ووجدت نفسها جميلة ، ولم تمل من النظر إلى ثوبها الجديد الأنيق ، فشكرت البنات وعانقتهن بحنان ، ومضين بها إلى السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ فقد أرادت إليزا أن تشكرهما أيضاً .

قالت إليزا بعدئذٍ وقد توجهت إلى غرفتها : سأخلع هذا الفستان الرائع وأحتفظ به للمناسبات .

كاميل : لا .. بل يجب أن تلبسيه طول اليوم .

إليزا : ولماذا ألبسه ؟

مادلين : سترين .. تعالي معي !

وأمسكت بيدها وأخذها إلى شجرة البرتقال التي زينت كأنها قاعة استقبال وكانت غاصة بالناس . مُلاّك الأراضي والمزارعون على الكراسي ، والفلاحون والخدم جالسون على الأرض ، ومشت بها البنات إلى مكان وسط الحاضرين وجلسن حولها .

ثم رفع الستار عن المسرحية ، كان موضوع المسرحية تلك المذبحة التي تعرض لها البيض في جزيرة سانت دومنيك وكيف أن الخدم أنقذوا الأطفال الصغار منها وأخذوهم إلى سفينة تغادر الجزيرة إلى فرنسا ، ووضعوا بين يدي قبطانها صندوقاً مملوءاً بالجوهرات والقطع الذهبية التي يملكها الأطفال ، وصفق الحاضرون لوفاء هؤلاء الخدم وإخلاصهم وحبهم للإنسانية .

وتناثرت باقات الزهور على الممثلين وعلى إليزا التي لم تعرف كيف تشكرهم على حسن عنايتهم بها .

بعد انتهاء العرض مضى الأطفال إلى قاعة الطعام فأكلوا ما شاؤوا من الحلوى والمربيات والمشروبات ، وأما الكبار فقد أقيمت لهم مائدة كبيرة في الحديقة وتناولوا وجبة طعام ساخنة من اللحوم والخضار .

بعد أن شبع الناس أُفسح المكان تحت شجرة البرتقال ، ورفعت الكراسي وهيئت الساحة للرقص ، ثم أُضيئت الفوانيس ، وحين جاء الأطفال بدأت الموسيقا تصدح ، وشرع الحاضرون بالرقص ، ولم ير الأطفال حفلة أبهج ولا أحلى من هذه الحفلة ، وأحست إليزا بأنها ملكة متوجة ، واستمر الرقص حتى الحادية عشرة ليلاً ، ثم انصرف المدعوون .

صوفي : يا رب ، أحس بحرارة خانقة .. وقميصي مبلل بالعرق .

مرغريت : وأنا أيضاً .. إن فستاني يقطر ماء .

مادلين : آه .. قدماي تؤلمانني .

كاميل : لم أعد قادرة على الوقوف ، لقد رقصت حتى أجهدت نفسي .

مرغريت : هل رأيت ذلك الرجل السمين كيف كان يتدحرج وهو يرقص ؟

كاميل : نعم .. لقد كان يقفز في الهواء ويدور حول نفسه وقد نسي بطنه المدور .

صوفي : وتلك المرأة النحيفة الطويلة التي أصابت برأسها الفوانيس ؟

مادلين : لقد كادت تحرق شعرها .. وإلا كانت احترقت كعود كبريت .

صوفي : وهل رأيت تلك الفتاة المتعجرفة التي تنظر إلينا باستعلاء ؟

مادلين : لا لم أرها ، ماذا كانت ترتدي ؟

صوفي : فستانها رمادي وله زهرات حمراء كبيرة .

مادلين : آه .. إنها خادمة خجولة .. وليست متعجرفة كما تظنين .

صوفي : لا أظن ذلك ، وهل لاحظت الأخرى لابسة ثوب الموسلين الأبيض ذات الحزام الأزرق الذي يصل حتى الأرض ؟ كم كانت قبيحة ! .

كاميل : لا تذكري الناس إلا بالخير ، لأنهم جاؤوا وقد ارتدوا ما يملكونه ، وكم استمتعنا بحضورهم !

صوفي : كم أنت متشددة .. هل ممنوع عليَّ أن أضحك من الناس السخفاء ؟ .

كاميل : ولكن كيف تظنين أن كل الناس سخفاء ؟ .

صوفي : إذا كنت تجدينهم ناساً ظرفاء فلست مضطرة إلى أن أراهم كما ترينهم .

مادلين : صوفي .. صوفي .. سوف تغضبين إذا تابعت على هذا المنوال .

صوفي : لا ، لن أغضب ، ولكني أظن أن كاميل مدّعية حين تظن نفسها مثال الطيبة والرحمة ، فهي لا تسخر من أحد أبداً ولا ترى حماقات الآخرين .

مرغريت : هذا من حسن حظك أنت .

صوفي : ماذا تقصدين ؟ .

مرغريت : أقصد أننا لا نضحك من حماقاتك حين ترتكبينها .

صوفي : لا يهمني رأيك .. فأنت غبية .

إليزا : ما هذا .. ما هذا ؟ هل بدأتما الشجار ؟ .

صوفي : إنها مرغريت تقول حماقات .

إليزا : ولكني سمعتك أنت تقولين عن مرغريت إنها غبية .

صوفي : لقد أجبتها فقط ، وهي التي بدأت .

مرغريت : هذا صحيح ، لقد قلت إنها تنطق بالحماقات لأنها وصفت كاميل بكلمات نابية .

إليزا : يا بنات .. يا بنات .. أهكذا تنهين هذه الحفلة الرائعة ؟ أهذا وقت الجدال والسباب ؟ .

فسكتت صوفي ومرغريت وأطرقتا إلى الأرض وسُمِعَ منهما :

- عفواً صوفي .

- عفواً مرغريت .

ثم تعانقتا واعتذرت صوفي من كاميل التي كانت طيبة القلب فلم تحمل لها حقداً ، ثم انصرفت البنات إلى غرفهن وأدين صلاتهن ، ثم نمن هادئات راضيات .

الفصل السابع عشر

ركوب الحمير

– ماما .. لماذا لا نركب حماراً نتنــزه فوقه .. هذا مسلٍ ؟

السيدة رسبورغ : لم أفكر في هذا أبداً .

السيدة فلورفيل : ولا أنا أيضاً ، ولكننا نستطيع تلافي هذا النسيان ، عندنا حماران في المزرعة ، وحماران في الطاحون ، وحماران في مصنع الورق ، فيكون عندنا ستة .

كاميل : وأين نذهب مع هذه الحمير الستة ؟

صوفي : نستطيع الذهاب إلى الطاحون .

مرغريت : لا . جانيت شريرة جداً ، ومنذ أن سرقت لي دميتي وهي ترميني بنظرات حاقدة .. لا أريد أن أراها .

مادلين : هيا نذهب إلى البيت الأبيض ، نرى لوسي .

صوفي : ليس المكان بعيداً ، سنذهب إليه ماشيات .

السيدة فلورفيل : عندي فكرة أظنها جيدة وستوافقن عليها .

كاميل : ما هي يا ماما .. قوليها أرجوك .

السيدة فلورفيل : أن يكون عندنا حمار سابع .

مرغريت : وماذا نفعل بحمار دون راكب ؟ .

السيدة فلورفيل : سنحمل عليه المؤونة ، هل فكرت بهذا ؟

مادلين : المؤونة ؟ ماذا نفعل بالمؤونة ؟

السيدة فلورفيل : المؤونة لنا جميعاً أيتها النهمات .

مرغريت : لماذا لا نأكلها على الطاولة بدل أكلها على ظهر الحمار .

وانفجر الجميع ضاحكين لفكرة أن يكون ظهر الحمار مائدة يأكلن عليها .. وشاركتهن مرغريت ضحكهن .

وقالت مدام فلورفيل : سيحمل الحمار مؤونتنا حتى الغابة المجاورة للطاحون ، وهناك نختار بقعة ظليلة نفرش عليها المائدة ونأكل معاً .

واندفعت إليها البنات يعانقنها ، فتخلصت منهن بصعوبة وهي ضاحكة : والآن سأدبر الحمار السابع .

وأسرعت البنات إلى بيت إليزا يخبرنها بأمر النـــزهة غداً .

إليزا : أشكركن من كل قلبي لأنكن فكرتن فيّ ودعوتنني إلى هذه النـــزهة ، ولكن .. لدي شيء آخر أفعله غير التسلية ، فإذا لم أساعد أمكن فإني سأنصرف إلى الخياطة .

مادلين : أي خياطة ؟ لا أظنك مستعجلة لإنهائها .

إليزا : لقد أنهيت عدة فساتين من البوبلين ولم يبق سوى الأكمام حتى ..

مرغريت : اتركي الخياطة الآن .

إليزا : ومن يخيطها إذا لم أفعل أنا ؟

كاميل : سنساعدك نحن على خياطتها .

إليزا : آه .. شكراً يا حبيباتي .. لا أريد منكن المساعدة لئلا تفسدن كل ما صنعته .. لا .. لا .. لكل عمله ، العبن وتنـــزهن فوق العشب ، وأما واجبي فهو إنهاء الخياطة ، وإني كبرت على اللعب والجري في الغابة .

صوفي : ولكنك كنت ترقصين بشكل رائع ليلة الحفلة .

إليزا : آه .. هذا شيء آخر .. الرقص يحرك الدم .. وأما التنـــزه في الغابة فلا أهتم به ، يجب أن أنهي خياطتي .

رأت البنات أن إليزا جادة في رفضها فودعنها ومضين إلى السيدتين ينقلن إليهما اعتذار إليزا .

قالت السيدة فلورفيل : إن إليزا لا تخلط بين الجد واللعب ، وهي تعرف واجباتها ولا تريد أن تُحْرجنا بحضورها ، وتسعى إلى الانتهاء من خياطتها لئلا توصف بالتقصير والإهمال ، إنها امرأة صالحة لا تهمل واجباتها .

نسيت البنات موضوع إليزا وانصرفن إلى التفكير في نزهة الغد .

قالت صوفي بعد ساعتين من الملل والتثاؤب : يا رب ، ما أطول النهار .

وأجابتها مادلين : سوف نأكل بعد نصف ساعة .

صوفي : وما يزال أمامنا الليل بطوله ، متى يأتي يوم الغد ؟ .

مرغريت : حين ينتهي هذا اليوم .

صوفي : أنا أعرف أن اليوم لن يكون غداً وأن الغد ليس اليوم .

مرغويت : وأن بعد الغد هو بعد الغد .

صوفي : هل تسخرين مني وتحسبين نفسك ذكية ؟

مرغويت : هل تقصدين أني لست أذكى منك .. أليس كذلك ؟

صوفي : لم أقل هذا .. ولكنك تدفعينني إلى قول الحماقات .

مرغريت : بل تقولينها من تلقاء نفسك .

كاميل : مرغريت .. مرغويت ..

مرغريت : عفواً ، ولكن صوفي في بعض الأحيان ..

صوفي : قوليها بسرعة .. صوفي غبية !

مرغريت : لا .. لم أقل إنك غبية ، بل عجولة لا تصبرين .

صوفي : وماذا رأيت من عجلتي وقلة صبري ؟

مرغريت : منذ ساعتين وأنت تتثاءبين ولا تكفين عن الحركة ، وتنظرين إلى الساعة ، وتقولين إن النهار طويل .

صوفي : حسناً .. وأين الضرر في هذا ؟ إني أقول بصوت مرتفع ما تفكرين به أنت .

مرغريت : لا .. نحن لا نفكر كما تفكرين ، أليس كذلك يا كاميل ؟

كاميل : نحن البنات الأكبر نعرف كيف ننتظر بصبر .

مرغريت : وأنا الأصغر منكن .. ألا أعرف الانتظار بصبر ؟ .

صوفي : نحن نعلم أنك الأكمل وأنك الأذكى وأنك أحسن الخلق أجمعين .

مرغريت : وأني لا أشبهك أيضاً .

كانت السيدة رسبورغ تسمع من القاعة ما يدور بينهن من حديث ، ولم تكن تريد أن تتدخل بينهن حتى يعرفن الخطأ من الصواب دون توجيه منها ، ولكن حينما وصلت محاورهما إلى هذا الحد ، وجدت من واجبها التدخل لتفصل بين الصديقتين .

السيدة رسبورغ : مرغريت ، لقد صارت لديك عادة التهكم وقول الكلام المؤذي ، وإذا كانت صوفي أقل صبراً منك فليس هذا سبباً للتهكم بها ، إني آسفة من أجلك ، كنت أظنك أكثر سماحةً وكرماً .

مرغريت : سامحيني يا ماما .. لا أريد أن تغضبي مني وأن توبخيني ، ولن أعود لمثلها أبداً .. وأنت يا صوفي أطلب منك المعذرة فإني أتسرع في الحكم عليك .. فأوذيك وأوذي أمي .

لاحظت صوفي أنها صادقة فعانقتها بحنان دليلاً على عودة الود بينهما ، وأمضى الجميع أوقاتاً مرحة حتى المساء ، ونامت صوفي هانئة لم تحلم بشيء حتى أيقظتها المربية الساعة الثامنة من صباح الغد .

وما إن غسلت وجهها ومشطت شعرها وارتدت ثيابها حتى سارعت إلى النافذة فرأت سبعة حمير مربوطة أمام البيت فنــزلت إليها تتفحصها .

قالت : هذا الحمار صغير جداً .. وهذا قبيح جداً بشعره المنكوش ، وهذا الرمادي الكبير يبدو عليه الكسل ، وهذا الأسود أظنه شرساً ، وهذان الحماران الأشقران نحيلان جداً ، وهذا الأشهب أفضلها وأجملها ، وسوف أركبه أنا ،

ولسوف أربط فوق ظهره قبعتي وشالي لئلا يأخذه الآخرون ، ستحاول البنات أخذه ولكني لن أتنازل عنه .

أما نيكوس وولده فقد حمّلا سلتين من المؤونة فوق ظهر الحمار الأسود ، ووصل الجميع بعدئذٍ جاهزات للنـــزهة .

السيدة فلورفيل : لتأخذ كلٌ واحدة حماراً ولنبدأ بالأصغر .. مرغريت أي حمار تفضلين ؟

مرغويت : لا يهمني .. كلها سواء ، اختاري لي واحداً .

السيدة فلورفيل : إذا كان الاختيار لي فإني أنصحك يا مرغريت بأحد هذين الحمارين الصغيرين ، وسيكون الآخر لصوفي ، إنهما رائعان .

صوفي : لقد اخترت حماري يا سيدتي ، هذا الأشهب ربطت فوقه قبعتي وشالي .

السيدة فلورفيل : ما كان عليك أن تسبقي صاحباتك إلى اختيار الحمار ، وكنت أفضل لو تركتِ لي اختيار واحد لك ، ولكنك تستطيعين أخذ الحمار الذي اخترته .

وخجلت صوفي وتمنت لو أنها لم تجلب العتاب لنفسها ، ويتبين للجميع أنها لم تبرأ من أنانيتها بعد .

ركبت كل واحدة فوق الحمار الذي اختارته .

انطلق الجميع . السيدة فلورفيل والسيدة رسبورغ في المقدمة تتبعهما مادلين وكاميل ومرغريت وصوفي ، وفي المؤخرة نيكوس وولده ومعهما حمار المؤونة .

مشت الحمير بتؤدة ، ثم هرولت راكضة ماعدا حمار صوفي الذي لم يشأ أن يفارق حمار المؤونة ، وضحكت البنات ، والحمير تجري بهن مسرعة على حين أبى حمار صوفي إلا السير بتؤدة ليبقى قرب صديقه ، واختفى الجميع عن نظرها بعد لحظات ، فجعلت صوفي تبكي فكان ابن نيكوس يواسيها فلا تزيدها مواساته إلا بكاء ، وقال لها :

– لا تبكي يا آنسة ، لقد أخطأت في اختيار حمارك ، وهذا أمر طبيعي لأنك لا تعرفين الحمير ولم تعاشريها في حياتك ، وقد خدعك هذا الحمار بمظهره الوديع ولونه الجميل ، وأنا أعرفه كسولاً عنيداً لا يفعل إلا ما يدور في رأسه ، ولكن لا تحزني لأنك ستتبادلين مع كاميل التي تتنازل لك عن حمارها راضية فهي طيبة القلب ، وسوف تركبين حمارها وتسبقين الجميع .

لم تقل صوفي شيئاً ولكنها خجلت من نتيجة أنانيتها ، وما زال الحمار الأشهب يتهادى بها حتى وصلت إلى المكان المعين فلم تجد أحداً . .

وذلك أن السيدة فلورفيل منعت البنات من انتظارها لكي تلقنها درساً ، فذهبن إلى الغابة بصحبة السيدة رسبورغ فلعبن وقطفن الأزهار وجمعن الفريز والجوز ورجعن ضاحكات متوردات الخدود ، وجلست صوفي قرب شجرة كئيبة مصفرة الوجه .

واندفعت إليها كاميل تعانقها :

– لم يشأ حمارك العنيد أن يجري يا صديقتي ؟

– لقد عوقبت على أنانيتي ، وسوف أمدد هذه العقوبة فأعود راكبة عليه .

وهتفت مادلين : لا . لن تعودي عليه .. إنه كسول جداً .

فقالت صوفي ضاحكة : لقد كتب الله عليّ ركوب هذا الحمار الكسول ، ولا مفرّ من قضاء الله .

واستعادت مرحها وساعدت صديقاتها على ترتيب المائدة ، وكانت المائدة حافلة بأنواع المآكل اللذيذة ، ومما زاد في نكهتها جو الغابة العطر وهواؤها الطلق .

مرغريت : ما أطيب هذا الغداء ، خاصة سمك السلور .

صوفي : واللحم المفروم هل تذوقته ؟

كاميل : لقد أعجبتني المعجنات بالفواكه .

مادلين : أنا أكلت بشراهة .

مرغريت : كنت جائعة جوع الذئب .

السيدة رسبورغ : هل تشربين بعض العصير ؟ ما زال منه الكثير .

مرغريت : نعم يا أمي .. لعلني أهضم ما أكلته .

وبعد أن أنهت البنات غداءهن قمن بجولة أخرى في الغابة وقد اصطحبن معهن صوفي هذه المرة ، وأكل نيكوس وولده ثم أعادا ترتيب الأشياء والأواني في السلتين ، وقال ابن نيكوس : يجب ألاّ تعطي حمار كاميل لصوفي ، والأفضل أن نحمل على الحمار الكسول السلتين ، وتأخذ صوفي الحمار الأسود ، ولا أظنه شرساً كما يبدو عليه لأنه حماري وأعرفه .

– افعل ما تريد يا بني .

بعد أن أنهى الجميع نزهتهن ورجعن إلى الموقع وجدن الحمير مسرجة ، ودهشت صوفي إذ رأت حمارها الأشهب يحمل المؤونة ، فقالت : أي حمار سأركب الآن ؟

– خذي الحمار الأسود ، ولا تخافي فهو وديع وسريع ولن تتأخري عن صاحباتك . وسوف يسرع بك حتى القصر .

حينما عاد الجميع إلى القصر وقفت السيدة فلورفيل وطلبت منهن الانتباه ، وقالت : لدي مفاجأة ، فقد وصلتني رسالة من عمكم روجيه يعلن فيها أنه سيقضي العطلة بيننا هو وعائلته .

وهللت البنات لهذا النبأ .

جاءت العطلة وزارهم العم وعائلته ، وكانت مناسبة جديدة ليتعرف الأولاد بعضهم على بعض ، ولكن هذه حكاية أخرى لا يكفي هذا الكتاب للحديث عنها ، وربما جاءت المناسبة لأحكيها لكم في كتاب قادم .

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

فتيات مثاليات

كونتيسه دي سيغير

